7 مصر وحرب 1948: الخلاف الداخلي والطموح الإقليمي

فواز أ. جرجس Fawaz A. Gerges

يبحث هذا الفصل كتابة التاريخ العربي عن دور مصر في حرب فلسطين سنة 1948 بغية الفرز بين الخرافات والحقائق. إن معظم الكتّاب العرب يوجّهون القسط الأكبر من اللوم في الهزيمة في فلسطين، إلىٰ الأنظمة القديمة ويسوقون الحجج والأدلة لإثبات عجزها وفسادها وخيانتها، وحججهم تقول إنّه لو كان العالم العربي محكوماً بقادة أشد عزماً وأكثر وطنية، لكان العرب انتصروا في الحرب ولما شهدنا ولادة دولة إسرائيل. إن كَتَبَة التاريخ العرب شكّكوا في شرعية النظام السياسي القديم في مدين، والعراق، وسورية، ولبنان، وشرق الأردن. ويرون أن هزيمة الدول العربية في سنة 1948 تمثّل أحد آخر المسامير في نعش الطبقات الاجتماعية والسياسيَّة القديمة الحاكمة. وسواء عن قصد أَو عن غير قصد، لعب الكتّاب العرب دوراً هامّاً في إضفاء صفة الشرعية على الرجال الجُدد الذين امتطوا صهوة الجواد وشرعوا في الاستيلاء على السلطة منذ أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، والذين أطلقوا الوعود بالدفاع عن الشرق العربي والإعداد لجولة ثانية مع إسرائيل. والحقيقة هي إن إضفاء صفة المؤسَّسات على العسكرتاريا في العالم العربي يعود بقدر كبير إلىٰ الحطّ من قدر الأنظمة القديمة. ومصر حالة مثالية. والمجتمعات المصرية والعربية بشكل عام لا تزال تدفع ثمن هذا التحوّل الثوري في العمل السياسي العربي.

لقد كان قرار مصر بالتدخّل في حرب فلسطين متأثّراً باعتبارات سياسية

وتكتيكيَّة. فقد قرَّر الملك فارق دخول حرب سنة 1948 مخالفاً نصيحة رئيس وزرائه، محمود النقراشي، والجيش، والأحزاب السياسية الرئيسية. وبالرغم من تشاؤم أعضاء البرلمان وتشكُّكهم في حكمة التدخّل، فإنَّهم، كالملك نفسه، كانوا متأثرين بمشاعر الجماهير وبمنطق العمل السياسي العربي، وبذلك فإنَّهم ساندوا قرار الملك فاروق بدخول الحرب.

إن المؤسَّسة السياسيَّة الحاكمة لم تأخذ الحرب في فلسطين مأخذ الجد، ولم تخطِّط، أَو تستعد، ولم تضع المجتمع المصري في مستوى حالة حرب، سواء قبل نشوب الأعمال الحربية أَو خلالها. إن الجهاز العسكري المصري كان يعاني من نواقص كبيرة في التدريب، والأسلحة، والذخائر، ووسائل النقل. ولم يكن لدى الجيش معلومات استخبارية عن القوَّات المسلَّحة اليهودية، وكان الجيش المصري يعتمد بصورة غير مباشرة على بريطانيا في الأمور اللوجستية. ولذلك كان قرار التدخّل في فلسطين حالة نموذجية من انهيار عملية اتخاذ القرار، إذ إن حسابات سياسية ضيقة وطموحات إقليمية مضخمة تفوقت على التفكير الاستراتيجي.

إن موقف النخبة السياسيَّة الجامع بين الضدّين وأعمالها الارتجالية كان لها تأثير مدمِّر طويل الأجل على العلاقات بين العسكريين والمدنيين. فالحكّام المصريون تجاهلوا آراء القادة العسكريين وورّطوهم في مغامرة مسلَّحة مكلفة بدون إجراء مشاورات واستعدادات كافية. وقد كان ضبّاط الجيش ناقمين على عدم أخذ وجهات نظرهم بالحسبان ولأنّهم بالتالي تعرّضوا لهزيمة مذلّة. إن الجراح الغائرة التي تعرّض لها الجهاز العسكري المصري في سنة 1948 سمّمت العلاقة مع المؤسَّسة المدنية الحاكمة وزادت من شهية العسكريين السياسية. وهكذا فإن بذور الانقلابات العسكرية قد بُذرت في مصر والعديد من الدول العربية.

إن جمع النخبة الحاكمة بين الضدّين قد ظهر أيضاً في طريقة تفاعل مصر

مع الدول العربية الأخرى قبل الحرب وخلالها وبعدها مباشرة. إن الحكمة التقليديَّة تقضي بأن تكون الدول العربية موحّدة في كراهيتها للدولة اليهودية وفي أهدافها المشتركة الرامية إلىٰ تدميرها. ولكن رواية الأحداث لا تأخذ في الحسبان التوترات التي كانت قائمة في العالم العربي. فانعدام الثقة والشك ميّزا تفاعلات مصر مع شركائها العرب خلال الأزمة الفلسطينيَّة. وقد كان القادة العرب منقسمين على أنفسهم انقساماً عميقاً في تقويمهم لقيام دولة إسرائيل وردّهم على ذلك كما أن أهدافهم السياسية كانت مختلفة. ولذلك تشرذم الائتلاف العربي. لقد كان لدى كل من مصر والدول العربية الأخرى مصالحها الخاصة التي وضعتها في المقدمة. ولم تكن هناك رؤية مشتركة لتوحيد الصفوف العربية في القتال ضد إسرائيل، وكان العرب يفتقرون إلىٰ استراتيجيَّة سياسية واستراتيجيَّة عسكرية للتعامل مع إسرائيل. وكانت الخلافات بين الدول العربية تلعب دوراً حاسماً في حسابات القادة العرب من حيث التدخّل المباشر في فلسطين وأسلوب خوض الحرب.

كتابة التاريخ العربي ـ المصري وحرب سنة 1948

إن قصة مصر وحرب فلسطين لا يمكن فهمها إلاَّ ضمن سياق كتابة التاريخ العربي وتفسيراتها المختلفة والمتناقضة. فالقصة تثير جدلاً شديداً في مصر وبقية العالم العربي. إن العديد من المصادر المصرية وغيرها من المصادر العربية تكشف عن شعور بالفوضى والتشرذم ضمن الصفوف العربية. فلم يكن هناك وحدة هدف بشأن أفضل السُّبل للتعامل مع الدولة اليهودية التي أُنشئت حديثاً. ومع أن كتابة التاريخ العربي يمكن تصنيفها في أسلوبين أساسيين ـ الأسلوب الاعتذاري والنقد الذاتي ـ إلاَّ أنها تقدّم لنا ثلاثة تفسيرات عريضة لهزيمة العرب في سنة 1948. التفسير الأول يدعي أن الحرب ضد الدولة اليهودية التي أُنشئت حديثاً كان بالإمكان أن يكون النصر فيها أسهل لولا الأنانية، والفساد، وخيانة القادة العرب. إن العرب، وفق هذا الرأي، كانوا

موحدين في تصميمهم على الحيلولة دون تمكين اليهود من إقامة وطن قومي سياسي في فلسطين. والكتّاب العرب الذين يقبلون هذا الرأي يوجهون اللوم في الهزيمة كلياً إلىٰ حكّامهم، وخاصة الملك عبد الله ملك شرق الأردن، والملك فاروق ملك مصر. اللذين يُقال أنهما باعا فلسطين من أجل مصالحهما الإقليمية الضيّقة[1].

ثمة تفسير ثان ينظر إلىٰ الحرب على أنها تكتيك اتبعته النخبة الحاكمة القديمة لتحويل الانتباه وتهدئة التوقعات السياسية والاجتماعية المتزايدة ومن أجل المحافظة على السيطرة على الوضع الداخلي. والصورة التي رسمت للجيوش العربية المخلّصة لأهدافها هي صورة جيوش خذلها القادة السياسيُّون وأرسلوها إلىٰ ساحة المعركة بدون استعداد وبدون تسلّح كاف وبنقص في التغذية، وكل ذلك من أجل تحويل الانتباه عن الأحوال السياسيَّة البائسة في الداخل. ولذلك لم تكن الغاية من التدخّل العسكري في فلسطين هي القتال وكسب الحرب وإنما كانت الغاية هي تخدير الجماهير واستيعاب صدمات إحباطها السياسي[2].

---

(1) جمال عبد الناصر في كتاب «فلسفة الثورة» (القاهرة ـ بدون تاريخ) ص12، وحكومة العراق في «تقرير لجنة التحقيق النيابية في قضية فلسطين» (بغداد ـ 1949) ص18، ومحمد فيصل عبد المنعم في كتاب «أسرار سنة 1948» (القاهرة ـ 1968) ص 195 ـ 96 و669، وفالح خالد علي في كتاب «الحرب العربية ـ الإسرائيلية 1948 ـ 1949 وتأسيس إسرائيل» (بيروت ـ 1982) ص 65 و105 و248 ـ 50 و410 ـ 11، وإبراهيم عبد الستار في كتاب «كارثة العرب في فلسطين» (بدون اسم مطبعة وبدون تاريخ) ص 56 ـ 57، وعارف العارف في كتاب «النكبة» خمسة مجلدات (صيدا وبيروت، 1956 ـ 61) المجلد الرابع ص78 ـ 89.

(2) عبد الناصر «فلسفة الثورة»: ص 12 و14 و15، عبد المنعم في كتاب «أسرار 1948» ص194 ـ 95، «مذكرات عبد الناصر عن حرب فلسطين سنة 1948» (باريس ـ بدون تاريخ)، فالح خالد علي «الحرب العربية الإسرائيلية» ص 61 ـ 65 و414 ـ 15، عارف العارف «النكبة» المجلد الأول ص178.

وهنالك مدرسة ثالثة في كتابة التاريخ العربي تؤكد أن السبب الرئيسي لهزيمة العرب يكمن في التواطؤ بين الحكّام العرب والدول الأجنبية ـ بريطانيا والولايات المتحدة. ويشير الكتّاب العراق والمصريون، مع استثناءات قليلة، إلىٰ الدور الحاسم الذي لعبه الضبّاط البريطانيون الذين كانوا يقودون الجيش الأردني. فهؤلاء كانوا، حسب الزعم، يخضعون المصالح العربية لمصالح وطنهم الأم. ويتهم الكتّاب العرب الهاشميين، وملك مصر فاروقبأنّهم كانوا مطواعين لبريطانيا ويخدمون خططها الإمبريالية في المنطقة. وكان الملك عبد الله على وجه الخصوص مذموماً باعتباره صنيعة للإمبرياليين ومتواطئاً مع الصهيونيين[3].

لماذا تدخّلت مصر في فلسطين؟

منذ البداية، عبَّر الجيش المصري، ورئيس الوزراء النقراشي، والأحزاب السياسية الكبرى، عن شكوكهم في حكمة إرسال الجيش النظامي للقتال في فلسطين. فإضافة إلىٰ أن مصر لم تكن مستعدة عسكرياً لخوض حرب، كانت منهمكة في تعديل معاهدتها مع بريطانيا[4]. وخلال اجتماع جامعة الدول العربيَّة

(3) راجع الشهادة المطولة في كتاب محمد حسنين هيكل «العروش والجيوش، كذلك، انفجر الصراع في فلسطين» (القاهرة ـ 1998) ص 440 ـ 46، وعبد المنعم في كتاب «أسرار 1948» ص 193 ـ 94، و196 ـ 97، و200 ـ 201 و249، فالح خالد علي في كتاب «الحرب» ص 92، 103، 195 ـ 96، 228، 410 ـ 11، 414 ـ 17، عبد الله التل «كارثة فلسطين» (القاهرة ـ 1959) ص 21، 27، 35 ـ 36، 65 ـ 73، 100، 232، 344 ـ 45، 432 ـ 42، 473 ـ 79، عارف العارف «النكبة» المجلد الأول، ص109، والمجلد الثاني ص 339 ـ 40، 653، صلاح العقاد «قضية فلسطين: المرحلة الحرجة، 1945 ـ 1956» (القاهرة ـ 1968) ص 61 ـ 62، عبد الستار «كارثة العرب» ص 56 ـ 57. وقد شارك الحاج أمين الحسيني في هذا الموقف، راجع كتابه «حقائق عن قضية فلسطين» (القاهرة ـ 1956).

(4) عبد المنعم «أسرار 1948» ص 190 ـ 96، 688، مجلة آخر ساعة القاهرية 20 أيار (مايو) 1952، وليد الخالدي في «المنظور العربي» نقله وليام روجر وروبرت ستوني =

في عاليه، لبنان، في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1947، قال النقراشي لزملائه بصراحة فجّة أن مصر لا تستطيع التدخّل المباشر في الحرب بسبب مشاكلها مع بريطانيا[5]. أما على المستوى الشعبي، فإن قرار الأُمم المتّحدة بتقسيم فلسطين أغضب الجماهير العربية. وهكذا فقد تفجّرت احتجاجات الطلبة في العديد من المدن المصرية، مطالبة الحكومة المصرية باتخاذ كل الإجراءات اللازمة لإنقاذ فلسطين. ولدى اتساع نطاق مظاهرات الطلبة، أصدرت وزارة الداخلية تعليماتها إلىٰ الشرطة بحظر المظاهرات. وتحدياً للقيود التي فرضتها الحكومة على التظاهر، تردّدت مدوية ومهدِّدة صرخة الطلاّب «أعطنا أسلحة يا نقراشي»[6].

ومع تصاعد القتال في فلسطين خلال سنة 1948 وتردي أوضاع الفلسطينيين، ازداد ضغط الرأي العام المصري على الحكومة من أجل التدخّل المباشر في الحرب. وتطوع مصريون من مختلف التوجهات السياسية للقتال في فلسطين. والأمر الذي زاد الضغط على الحكومة من أجل الإقدام على عمل، إرسال جماعة الإخوان المسلمين العديد من أتباعها لخوض القتال جنباً إلىٰ جنب مع الفلسطينيين[7]. ويبدو أن الغضب الشعبي والشعور بالإحباط كان لهما دور حاسم في حمل الملك على التدخّل في فلسطين. ومع أن رئيس الوزراء النقراشي كان ضد التدخّل، فقد قال أنه انساق مع الرأي العام الذي «كان بأجمعه يميل إلىٰ الحرب ويعتبر كل من يرفض القتال خائناً»[8].

= في كتاب «نهاية الانتداب على فلسطين» «The End of The Palestine Mandate» (لندن ـ 1986) ص109، هيكل «العروش» ص 48 ـ 49.

(5) خالدي «المنظور العربي» ص119.

(6) جريدة الأهرام القاهرية، 15 كانون الأول (ديسمبر) 1947.

(7) كامل إسماعيل الشريف «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» (القاهرة 1951)، علي «الحرب» ص 142 ـ 43، عارف العارف «النكبة»، المجلد الثاني ص 398 ـ 99.

(8) محمد حسنين هيكل في الأهرام تاريخ 29 أيلول (سبتمبر) 1952، الأهرام 12 كانون =

كذلك فإن الدول العربية الأخرى أدركت الحاجة إلىٰ المشاركة المباشرة في الحرب. وفي الحادي عشر من أيار (مايو) 1948، قال الأمين العام لجامعة الدول العربيَّة عبد الرحمن عزَّام، محذِّراً الحكومة المصرية، إن الحكام العرب سيجدون صعوبة في عدم التدخّل المباشر في حرب فلسطين، وإن مصر ستجد نفسها معزولة ما لم تحزم أمرها. وأضاف عبد الرحمن عزّام أن الملك عبد الله قرَّر تحريك قوّاته إلىٰ فلسطين في 15 أيّار (مايو) بغضّ النظر عما قد تفعله الدول العربية الأُخرى، وأن الملك عبد الله، في حالة عدم اشتراك الجيوش العربية في الحرب، قد يحتل الجزء العربي من فلسطين ويوجّه اللوم إلىٰ الدول العربية الأُخرى لإخفاقها. ونوّه عبد الرحمن عزّام بأن العراق، وسورية، ولبنان قرَّرت أن تتدخّل لأنها لا تتحمّل تبعة البقاء في حالة انفكاك، وأنه يأمل من مصر أن تنضم إلىٰ شقيقاتها العربية. وعقب ذلك أكّد وزير الحربية المصري، محمد حيدر باشا، أن مصر غير راغبة في التدخّل في حرب فلسطين ولكنها ترضخ لرغبات جامعة الدول العربيَّة من باب التضامن[9].

بداية، استجابت الحكومة للضغط الشعبي عن طريق تشجيع الجنود والناشطين فردياً، ومن ضمنهم الإخوان المسلمون، على التطوع لخوض الحرب[10]. ولكن مع تصاعد القتال وتعمّق الغليان الشعبي، رأى الملك فاروق

= الثاني (يناير) 1948، وقد اطلع النقراشي أيضاً العام لجامعة الدول العربيَّة عبد الرحمن عزام على الموجبات الداخلية. راجع أقوال عزام إلىٰ هيكل في كتاب «العروش» ص 450 ـ 51، عارف العارف «النكبة» المجلد الثاني الصفحتان 341 ـ 389، علي «الحرب» ص 32 و109، محمد حسنين هيكل «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» (القاهرة ـ 1996) ص248.

(9) إبراهيم شكيب «حرب فلسطين 1948، رؤية مصرية» (القاهرة ـ 1986) ص 123 ـ 24، عبد المنعم «أسرار 1948» ص190.

(10) شكيب «حرب فلسطين» ص116، علي «الحرب» ص90، عارف العارف «النكبة» المجلد الثاني ص341، عبد المنعم «أسرار 1948» ص190، الشريف «الإخوان» ص47، هيكل «العروش» ص 49 ـ 50 و53.

أنه يصعب عليه أن يظل غير مبال. كانت يدا الملك مغلولتين إلىٰ حد ما بالاعتبارات السياسية الداخلية[11]. في سنة 1948 لعب الرأي العام دوراً حاسماً في التأثير في سياسة مصر الخارجية. وقد كانت هذه حالة مثالية تظهر كيف أن قيادة تجمع بين الضدين، تجد نفسها مضطرّة إلىٰ اتخاذ إجراء بسبب القوى المحرّكة الداخلية.

ثمة اعتبار هام آخر بالنسبة إلىٰ الملك هو منطق العمل السياسي العربي. فقد كانت جامعة الدول العربيَّة منقسمة منذ إنشائها إلىٰ كتلتين، إحداهما مؤلّفة من مصر، والمملكة العربية السعودية، وسورية، ولبنان. أما الكتلة الثانية فهي الكتلة الهاشمية وتضم شرق الأردن والعراق. وقد كانت لملوك مصر، وشرق الأردن، والمملكة العربية السعودية طموحات أسرية.. فقد كان كل منهم يريد أن يقوم بدور قيادي. وكان فاروق يخشى طموحات عبد الله الإقليمية، ولا سيما خططه لقيام سورية الكبرى، التي تشمل لبنان وفلسطين العربية. والحقيقة هي أن أحد الأسباب الرئيسية لتدخّل فاروق في حرب سنة 1948 كان رغبته في احتواء عبد الله وحرمانه من اكتساب مزيد من النفوذ والقوة على الساحة العربية. كذلك فإن فاروق، الذي تبع خطا والده، أراد أن يصبح الزعيم غير المُنازَع للعالم الإسلامي وأن ينال التأييد الشعبي داخل مصر بعد أن تلوّثت سمعته بفضائحه الشخصية[12].

---

(11) العارف «النكبة» المجلد الثاني، ص 340 و382، العقاد «قضية فلسطين» ص60، هيكل «العروش» ص 47 و72.

(12) محمد حسنين هيكل «مذكرات في السياسة المصرية» (القاهرة ـ 1978) ص 30، العارف «النكبة» المجلد الثالث ص 663 ـ 64، خالدي «منظور عربي» ص 109، محمد حسنين هيكل يبسّط الأمور كثيراً بتأكيده أن كلام فاروق البلاغي وأعماله تمثّل نقلة أيديولوجية وطنية. إن هيكل، وهو كاتب قومي، يعزو الكثير جداً من العقلانية والقوة إلىٰ النخبة الحاكمة في القاهرة. ويؤكّد هيكل أن مصر لم تكن تحارب من أجل فلسطين والفلسطينيين فقط بل كانت أيضاً تحارب من أجل أن تحول دون عزلها عن بيئتها العربية الطبيعية. وبأسلوب تبسيطي يصور هيكل فاروق وحاشيته في البلاد بأنّهم =

ومع تصاعد الانزلاق إلىٰ الحرب في أواخر نيسان (أبريل) عقدت جامعة الدول العربيَّة اجتماعاً في سورية بتاريخ 12 أيار (مايو) وقرَّرت إرسال الجيوش العربية إلىٰ فلسطين. وبتاريخ 11 أيار (مايو)، أي قبل نشوب الحرب بأربعة أيام، أصدر فاروق أمراً إلىٰ وزير حربيته، حيدر، بإعداد الجيوش للدخول إلىٰ فلسطين، دون إعلام النقراشي، الذي كان معارضاً بقوّة مشاركة مصر في الحرب[13]. ومع أن مصر كانت غير مستعدّة للحرب إلىٰ حد محزن، ولم يكن مجلس الوزراء، والبرلمان والجيش مطّلعين على الأوضاع البائسة للجهاز العسكري، فقد تغلّب رأي فاروق على آرائهم ودفع مصر إلىٰ الحرب[14].

أخفق كثيرون من السياسيين المصريين والعرب في تقدير قوة القوَّات المسلَّحة اليهودية ـ التي كانوا، استهانة بها، يطلقون عليها اسم العصابات الصهيونية ـ بالرغم من وجود دليل قوي على قوتها. إن المفاهيم الثقافية الخاطئة والمواقف العرقية تجاه اليهود بصورة عامّة قد أعمت بصائر العرب وأوقعتهم في فخّها.. وقد وصف أحد كبار الضبّاط العراقيين هذا الوضع بقوله: «إن الدعاية العربية استهانت بقوة الصهيونيين واعتبرت قيادتهم عصابة إجرامية تحكم عن طريق الإرهاب. وقد آمن العرب بأن اليهود سيتمرّدون عند أول فرصة على قادتهم الذين يرغمونهم على القتال»[15].

= وطنيون مخلصون. راجع « كتابه «المفاوضات السرِّيَّة» ص 211 ـ 14 و272 ـ 73، هيكل «العروش» ص 25 ـ 30، 34 ـ 35، 45 ـ 47، 75 ـ 77، عبد المنعم «أسرار 1948» ص163، 169، 693، علي «الحرب» ص33.

(13) محمد نجيب في جريدة «المساء» القاهرية، 2 حزيران (يونيو) 1974.

(14) الأهرام، 3 حزيران (يونيو) 1951، مجلة المصور العدد 968، 13 أيار (مايو) 1953، هيثم الكيلاني «الاستراتيجيَّة العسكرية للحروب العربية ـ الإسرائيلية 1948 ـ 1988» (بيروت ـ 1999) ص127، شكيب «حرب فلسطين» ص127، عبد المنعم «أسرار 1948» ص 191 ـ 93، 345، 688، العارف «النكبة» المجلد الثاني ص382، العقاد «قضية فلسطين» ص59.

(15) خليل سعيد «تاريخ الجيش العراقي في فلسطين، 1948 ـ 1949» (بغداد، 1969)=

والحقيقة أن السياسيين العرب كانوا يصغون إلىٰ الروايات المضلّلة التي يصدرها عزّام، الأَمين العام لجامعة الدول العربيَّة، والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر ورئيس الهيئة العربية العليا. وكلاهما كان خارج فلسطين وجاهلاً للأحوال الداخلية فيها، وكلاهما كان مبالغاً في تقديره لقوة العرب، ومدعياً أن كل «ما يحتاجه العرب هو ثلاثة أَو أربعة آلاف مقاتل لإلقاء اليهود في البحر»[16].

بعد تلقيه أوامر إرسال الجيش إلىٰ فلسطين، قال وزير الحربية، حيدر، أمام مجلس الوزراء «إن العسكريين المصريين قادرون وحدهم على احتلال تل أبيب، عاصمة اليهود، في غضون خمسة عشر يوماً، بدون مساعدة من الدول العربية الأخرى»[17]. وفي جلستين مغلقتين لمجلسي النوّاب والشيوخ قبل بدء الأعمال الحربية بثلاثة أيام، بدل النقراشي موقفه فصار محبِّذاً للتدخّل وطمأن المتشكّكين من أعضاء المجلسين إلىٰ أن «الجيش المصري لديه وفرة من الأسلحة والذخائر وأنّه على أتم استعداد»[18].

ولكن لا فاروق ولا النقراشي حمل موضوع الحرب محمل الجد. ففي

= عبد المنعم «أسرار 1948» ص 331 و671، العارف «النكبة» المجلد الثالث، ص 655 ـ 56.

(16) أحمد فرج «صفحات مطوية عن فلسطين» (القاهرة ـ 1967) ص5.

(17) شكيب «حرب فلسطين» ص127، هيكل «مذكرات» ص3، يجب عدم الخلط بين هيكل هذا ومحمَّد حسنين هيكل الصحفي ذي النزعة القومية العربية. أما الأول فقد كان رئيس مجلس الشيوخ المصري.

(18) للاطلاع على محاضر مجلسي النواب والشيوخ في اجتماعاتهما السرية، راجع كتاب هيكل «العروش» ص 78 ـ 85. كان بعض السياسيين العرب يعتقدون أن «العقابات الصهيونية» سوف تستسلم وتهرع للاختباء حالما تدخل الجيوش العربية فلسطين. كانت فلسطين في نظر الملك سعود «قرية صغيرة» غير جديرة بالكثير من الاستثمار فيها، كما أن نظيره الأردني الملك عبد الله أعلن أكثر من مرة أن «الجيش الأردني سيحتل القدس خلال 48 ساعة ويزحف متقدماً نحو رأس الأفعى ـ تل أبيب». عبد المنعم «أسرار سنة 1948» ص671.

اجتماع رؤساء القوّات المسلحة في العاشر من أيار (مايو)، أكّد النقراشي لبعض ضبّاط الجيش أن القتال في فلسطين سيكون «تظاهرة سياسية» وليس عملاً عسكرياً حقيقياً، وإن النزاع ستحلّه الأُمم المتّحدة حلاً سياسياً وسريعاً. قبل ذلك كان النقراشي قد قال لزملائه العرب بصراحة جافة في اجتماع عاليه، لبنان، خلال شهر تشرين الأَوَّل (أكتوبر) 1947، «أريد منكم أن تعلموا أن مصر إذا وافقت على المشاركة في هذه التظاهرة العسكرية فإنّها ليست مستعدة للذهاب إلىٰ أبعد من ذلك»[19]. علاوة على ذلك، فإن فاروق قال للنقراشي عندما اعترض هذا على التدخّل المباشر، إن القوّات البريطانية المرابطة في مصر، ستمنع القوّات المصرية من اجتياز الحدود إلىٰ فلسطين، الأمر الذي مكّنه من توجيه اللوم إلىٰ البريطانيين في عدم مشاركة مصر في الحرب[20]. وقد أكّد الرئيس جمال عبد الناصر في مذكراته هذا الشعور بقوله: «عند سماع الضبّاط بيانات الحكومة شعروا أن الحرب هي حرب سياسية.. فكيف يمكن أن يسمى هذا الشيء حرباً بدون تعبئة الجنود، وبدون إعداد الأسلحة والذخائر، وبدون خطط ومعلومات للضبّاط في مسرح العمليات: لذلك كان الأمر لا يعدو كونه مجرد حرب سياسية ـ وهذا مأزق»[21].

المؤسَّسة السياسية الحاكمة لم تأخذ الحرب في فلسطين مأخذ الجد ولم تخطِّط ولم تعد للحرب عدّتها ولم تضع المجتمعات العربية في جو الحرب لا قبل العمليات الحربية ولا خلالها. وبين فترة التقسيم وقرار الانسحاب الذي اتخذته بريطانيا، لاحظت لجنة التحقيق النيابية العراقية أن الدول العربية لم تخطِّط استراتيجياً أَو تكتيكياً للأعمال الحربية المقبلة[22]. وفي ضوء هذه

(19) آخر ساعة 13 أيار (مايو) 1953، عبد المنعم «أسرار 1948» ص 193 و671 عارف العارف «النكبة» المجلد الرابع ص853.

(20) شكيب «حرب فلسطين» ص 124 ـ 25، هيكل «العروش» ص48.

(21) جمال عبد الناصر في آخر ساعة، 10 آذار (مارس) 1965.

(22) موسى العلمي «عبرة فلسطين» (بيروت ـ 1949) ص 24 ـ 25، خالدي «منظور عربي» ص108، كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص 121 ـ 23 و140.

المواقف المسترخية، لم يجر تقييم صحيح لقدرات الجيوش العربية. على سبيل المثال، الجهاز العسكري المصري كان يعاني من عيوب كبرى في التدريب، والأسلحة، والذخائر، ووسائل النقل. كذلك، لم تتوفّر للجيش معلومات استخبارية عن القوّات المسلّحة اليهودية وكان يعتمد بصورة غير مباشرة على بريطانيا في الأمور اللوجستية. وكانت بريطانيا تمارس نفوذاً كبيراً على مصر وجيشها عبر بعثتها العسكرية. وخلال المدة من سنة 1931 وسنة 1947 لم يجر الجيش المصري تمريناً عسكرياً واحداً من شأنه إعداده لحرب كبيرة[23]. وعلى حد قول قائد القوّات المصرية في فلسطين «كاد الجيش أن يفقد روحه العسكرية»[24]. واعترف ضابط كبير آخر بقوله: «فوجئنا بالحملة على فلسطين لأننا لم نكن مستعدين لها. كنت معارضاً للحرب بسبب افتقارنا إلىٰ الإمدادات العسكرية ولكنهم (السياسيين) أرغمونا على القتال.. كدت أصاب بجلطة عندما تجاهلوا رأيي»[25]. وقد قال عبد الناصر في مذكراته أنه عندما طلب منه أن يلتحق بوحدة تَقرَّر نشرها في فلسطين، توجّه إلىٰ مقر قيادة الحرب فوجده خالياً يخيم عليه السكون: «ولما وجدت كبير الضبّاط المسؤول عن المقر، كان يقوم بإعداد الطعام للعشاء»[26].

كانت مهمة الجيش المصري الرئيسية حتى نشوب الحرب في سنة 1948

---

(23) أنون «العمليات الحربية في فلسطين سنة 1948» (القاهرة ـ 1961) الجزء الأول، المصر العدد 968، 13 أيار (مايو) 1053، حسن البدري «الحرب في أرض السلام: الجولة العربية الإسرائيلية، 1947 ـ 1949» (بيروت ـ 1976) ص113، شكيب «حرب فلسطين» ص 126، 156 ـ 58، 170 ـ 186 و422، عبد المنعم «أسرار 1948» ص 235 ـ 39 و688 ـ 89، علي «الحرب» ص109، كيلاني «الاستراتيجيّة» ص 108 ـ 109 و132، ستيفن غرين «الانحياز: علاقات أمريكا السرِّيّة مع إسرائيل التي تنزع إلىٰ الحرب» (نيويورك ـ 1984) ص25، إدغار اوبالانس «الحرب العربية ـ الإسرائيلية، 1948» (لندن ـ 1956) ص36، عارف العارف «النكبة» المجلد الرابع ص 848 ـ 53.

(24) آخر ساعة، 13 أيار (مايو) 1953.

(25) الأهرام، 24 آذار (مارس) 1953.

(26) «مذكرات جمال عبد الناصر في فلسطين» آخر ساعة، 9 و10 آذار (مارس) 1955.

هي المحافظة على الاستقرار. وهذا يفسِّر إحجام السلطات المصرية عن إرسال أكثر من جزء ضئيل من الجيش ـ نحو 10,000 جندي ـ إلىٰ فلسطين[27]. كما أن الحكومة المصرية استخدمت ذريعة التدخّل في فلسطين لإعلان أحكام الطوارىء في مصر وللحد من الحريات الشخصية وقمع المعارضة[28].

وعلى الرغم من تشكّك أعضاء البرلمان وتساؤلهم عن الحكمة في التدخّل، فقد انجرفوا مع الشعور الشعبي ومنطق العمل السياسي بين العرب فأيَّدوا قرار الملك بدخول الحرب. في هذا السياق، كان قرار التدخّل في فلسطين مثالاً نموذجياً لعملية صنع القرار المليئة بالعيوب، إذ إن الحسابات السياسية الضيِّقة والطموحات الإقليمية المتضخمة تغلّبت على التفكير الاستراتيجي. إن الوثائق البريطانية تبيِّن بوضوح أن مصر والدول العربية الأخرى بدت أكثر اهتماماً بالسياسة الداخلية والتحايل فيما بينها لامتلاك السلطة والحصول على المنافع أكثر من اهتمامها بالحكومة اليهودية الجديدة المُزمع قيامها[29].

---

(27) شكيب «حرب فلسطين» ص 126، 156 ـ 58، 170 ـ 76، و422. كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص108، العقاد «قضية فلسطين» ص 81 و85.

(28) شكيب «حرب فلسطين» ص 127 ـ 28 وص132 علي «الحرب» ص65.

(29) للاطلاع على نموذج من الوثائق البريطانية، راجع مكتب السجلات العامة، رسالة من كامبل إلىٰ مستر بيفن تاريخ 6 تموز (يوليو) 1948، وزارة الخارجية البريطانية رقم 371/ 68857، من القاهرة إلىٰ وزارة الخارجية البريطانية، 6 تشرين الأوَّل (أكتوبر) 1948، وزارة الخارجية البريطانية 371/ 68642، من القاهرة إلىٰ بيفن، 16 تشرين الأوَّل (أكتوبر)1948، وزارة الخارجية البريطانية، 371/ 68862، من القاهرة إلىٰ وزارة الخارجية البريطانية، 9 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948، وزارة الخارجية البريطانية 371/ 68634، من عمان إلىٰ وزارة الخارجية البريطانية، 14 كانون الأول (ديسمبر) 1948، وزارة الخارجية البريطانية 371/ 68862، القاهرة إلىٰ وزارة الخارجية 16 كانون الأول (ديسمبر) 1948، وزارة الخارجية 371/ 68644، القاهرة إلىٰ وزارة الخارجية، 16 كانون الأول (ديسمبر) 1948، وزارة الخارجية 371/ 68364.

العلاقات بين العسكر والمدنيين

منذ تشرين الأوَّل (أكتوبر) وتشرين الثاني (نوفمبر) 1947 كان صفوت قد أعد تقريرين كانا صريحين صراحة تامّة في تحذيرهما القادة العرب من الكارثة العسكرية الوشيكة الحدوث ما لم يضمنوا التفوّق في الإعداد والمواد وما لم يعملوا بأقصى سرعة. وبوجه عام، بدا أن توصيات القادة العسكريين قبل التدخّل وخلال الحرب ذاتها، وقعت على آذان صماء. فبدلاً من التوافق بين الجسم العسكري والجسم السياسي بقيا متباعدين. إن الألاعيب السياسية ومصلحة كل دولة كان لها دور حاسم في حسابات ومداولات الحكّام العرب[30].

لنأخذ، على سبيل المثال، تعيين عبد الله قائداً لجميع القوّات العربية، فعلى حد قول أحد المؤرخين، وقوله مقنع. «صحيح أن الحكّام العرب عهدوا إلىٰ الملك عبد الله بقيادة العسكر، إلاَّ أن تعيينه كان رمزياً. لم يكن أحد منهم يثق بالآخرين. وهم (القادة العرب) كانت لديهم شكوك في نيّاته وكانت شكوكهم أكبر في قائد جيشه، غلوب باشا»[31]. ولم يكتف القادة السياسيون العرب بتجاهل آراء القادة العسكريين لدولهم بل ورّطوهم في مغامرة مكلفة بدون استعداد كاف وبدون قيادة موحّدة. وكانت التوترات والخلافات بين القيادتين المدنية والعسكرية خلال حرب فلسطين مسؤولة

---

(30) راجع تقارير صفوت في «تقرير لجنة التحقيق» ص 30 ـ 33 و123 ـ 58. للاطلاع على النص باللغة الإنكليزية لتقارير صفوت، راجع وليد الخالدي «وثائق مختارة عن حرب فلسطين سنة 1948»، مجلة دراسات فلسطينية 27/ 3 (1998)، 118 ـ 22، خالدي «منظور عربي» ص 121 ـ 22، عارف العارف «النكبة» المجلد الأول ص 21، 100، 178، كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص 112 ـ 13 و133، علي «الحرب» ص36، أوبالانس «الحرب العربية ـ الإسرائيلية» ص40.

(31) عارف العارف «النكبة» المجلد الثالث ص 664 ـ 65. راجع أيضاً هيكل «المفاوضات» ص249.

جزئياً عن الانقلابات العسكرية التي هزّت العالم العربي في الصميم عقب سنة / 1949/ .

هذا الواقع لا يبرّىء العسكريين من المسؤولية التاريخية عن أدائهم البائس في فلسطين. إن كتابة التاريخ العربي تفعل ذلك بالذات عندما تصبّ اللوم بالكامل على المسؤولية السياسية الحاكمة وتصور الجيوش العربية بأنّها ضحايا مغلوبة على أمرها، في ذلك الخلاف المعقّد. وفي حين أن سلوك الأنظمة القديمة أخضع لنقد حاد، فإن مثل هذا النقد لم يطبّق على أداء العسكريين. مثلاً، شجب القادة العسكريون رؤساءهم المدنيين لإخفاقهم في توحيد بنية القيادة العربية، وردد معظم المؤرخين العرب هذا النقد. غير أن النقراشي يقول إن القادة العسكريين لم يقترحوا إطلاقاً أن توحد الدول العربية قيادتها، وهذا دحض واضح للنقد الصادر عن الجيش[32].

ثمة مثال واضح على ذلك هو الجنرال صفوت، رئيس الأركان العراقي السابق، الذي أشاد وليد خالدي «بكفاءته المهنية ونزاهته». إن صفوت كان ضابطاً عادياً لم يمتلك أية خبرة عملياتية، وكانت ترقيته بسبب الأقدمية وليس بسبب مؤهلاته، وهذه كانت حالة عامة في معظم الدول العربية[33]. كانت خسارة العديد من المعارك، وإبادة العديد من الوحدات نتيجة مباشرة لأغلاط وأخطاء في الحسابات ارتكبها ضبّاط الجيش. وقد فشل العسكريون فشلاً ذريعاً في جمع معلومات استخبارية عن العدو قبل بدء العمليات الحربية وخلالها. كما أن الضبّاط العسكريين، شأنهم شأن رؤسائهم المدنيين. أظهروا ميولاً مماثلة إلىٰ التفاهة والغيرة من بعضهم بعضاً. إن هذا السلوك أثّر في قدرتهم على التعاون في ساحة المعركة. بل إن أحد الكتّاب ذهب إلىٰ أبعد من ذلك

(32) شكيب «حرب فلسطين» ص 376 ـ 77.

(33) هيكل «المفاوضات» ص 249 ـ 50.

فقال إن بعض كبار الضبّاط العرب، خلافاً لما كان عليه نظراؤهم اليهود، لم يبالوا كثيراً بأرواح جنودهم[34].

إن أحمد علي المواوي، الذي كان قائداً في الميدان، وعبد الناصر، الذي كان آنذاك ضابطاً برتبة صغيرة، ذكرا في مذكراتهما أن بعض الضبّاط الذين تولوا قيادة القوّات المصرية كانوا عديمي الخبرة وتم تخريجهم بسرعة من الكلية الحربية لسوقهم إلىٰ فلسطين قبل أن يكملوا مدة تدريبهم. وكان عبد الناصر واحداً من هؤلاء الضبّاط[35]. ويقدم المواوي وصفاً مقلقاً عن ضبّاط عديمي الكفاءة بليدين، لم يحصلوا على تدريب جيد ولم تكن لديهم دوافع سليمة. ويقدم قائد الميدان المصري أيضاً صورة للجنود المشاة، الذين كان تدريبهم رديئاً، ولباسهم وغذائهم رديئين[36]. وجدير بالملاحظة أن فاروق، القائد الأعلى للقوات المصرية، ووزير الحرب، حيدر، لم تكن لهما معرفة بالاستراتيجيَّة أو التكتيك العسكري. كان حيدر قد أمضى معظم خدمته العسكرية مديراً للسجون في مصر. وكبار الضبّاط العرب الآخرون كانوا تقليديّين أكثر مما كانوا مبدعين في تفكيرهم العسكري[37].

يميل المؤرِّخون العرب إلىٰ الصمت عند تقييمهم دور العسكريين في

---

(34) علي «الحرب» ص224، عبد المنعم «أسرار 1948» ص674، كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص117، عارف العارف «النكبة» المجلد الثالث، ص 719 ـ 20 و730، العقاد «قضية فلسطين» ص 64 ـ 72، عبد الستار «كارثة العرب» ص20. قال داڤيد بن غوريون ساخراً إن تكوين الجيوش العربية كان انعكاساً لتكوين مجتمعاتهم الاجتماعي. «إعادة ولادة إسرائيل ومصيرها» (نيويورك ـ 1994) ص244. راجع أيضاً عارف العارف «النكبة» المجلد الرابع ص 849 ـ 50.

(35) المصور العدد 986 تاريخ 13 أيار (مايو) 1953 وآخر ساعة العدد 1063، 9 نيسان (أبريل) 1955 وعارف العارف «النكبة» المجلد الرابع ص849.

(36) راجع شهادة مستفيضة لهيكل «العروش» ص 453 ـ 58.

(37) هيكل «العروش» ص 104 ـ 106.

فلسطين، بينما يتشدَّدون في نقد القيادة المدنية. إن هذه النظرة التفاضلية كانت لها مضامين دقيقة بالنسبة للعلاقات بين العسكريين والمدنيين في المجتمعات العربية. وإحدى النتائج الرئيسيَّة لحرب سنة 1948 هي الحط من قدر الطبقات الاجتماعية والسياسية القديمة وإضفاء الشرعية على الرجال راكبي صهوات الجياد باعتبارهم منقذين ومخلّصين. في هذا السياق أسهم المؤرخون العرب الذين كتبوا تاريخ سنة 1948 إسهاماً كبيراً في شيوع هذا التفريق التبسيطي بين الفئتين.

جولة القتال الأولى 15 أيار (مايو) ـ 10 حزيران (يونيو)

كان هدف الجيش المصري هو الزحف من رفح، على الحدود المصرية، شمالاً والوصول في النهاية إلىٰ تل أبيب واحتلال جميع المستوطنات اليهودية الواقعة على طريق تقدّمه. وقبل بدء التدخّل بثلاثة أيام، عقد الملك فاروق اجتماعاً مع وزير حربية مصر ومجموعة من الضبّاط الذين أُعدوا للذهاب إلىٰ فلسطين. قال فاروق في هذا الاجتماع «إن مصر كانت مضطرّة لدخول الحرب مع الدول العربية الأخرى مع أننا لسنا مستعدين استعداداً كاملاً». وأضاف فاروق: «إن الملك عبد الله وعبد الإله الوصي على عرش العراق وعداني بأن يحمل جيشاهما معظم عبء القتال.. إن القوَّات المصرية ستزحف باتجاه تل أبيب، ولدى دخول الجيش الأردني المدينة، نتقدّم نحن لنساعد الجيش الأردني في احتلالها». وختم فاروق حديثه الفخم بتحذير ضبّاطه من خوض أية معركة تكون فيها قوَّات العدو متفوقة عددياً. وبدا فاروق غير مدرك لخطورة قراره لأنه أعطى الانطباع بأن مشاركة مصر كانت مشاركة رمزية وليست مشاركة حقيقية[38]. وبعبارة أخرى، لم تحدد القيادة المصرية للقادة العسكريين الهدف الاستراتيجي للتدخّل[39].

---

(38) شكيب «حرب فلسطين» ص161.

(39) هيكل «المفاوضات» ص 273 ـ 74.

أما الملك عبد الله فكان عنده مفهوم مختلف عن مفهوم نظيره المصري. ففي الثالث عشر من أيار (مايو) سافرت المجموعة العسكرية مع الدول العربية الأربع الأخرى. أبدى الملك عبد الله ملاحظة ذات مغزى سمعها أعضاء الوفدين: «لقد عيّنتني جامعة الدول العربيَّة قائداً أعلى للجيوش العربية. أما كان ينبغي أن تكتسب مصر هذا الشرف باعتبارها كبرى الدول العربية؟ أم أن الغاية الحقيقيَّة من هذا التعيين إلصاق اللؤم والمسؤولية بنا في حالة الفشل؟»[40]. منذ البداية تراكم الارتباك بشأن المهام العسكرية لكل بلد. فالحكّام العرب لم يكن أحد منهم يثق بالآخرين، ولا هم قاموا بتنسيق عقلاني لاستراتيجيتهم العسكرية. وكانت لمصر وشرق الأردن، على وجه الخصوص، أهدافاً مختلفة[41]. وتبسيطاً للأمور نقول إن الملك عبد الله كان هدفه هو ضم الجزء العربي من فلسطين إلىٰ مملكته، بينما كان هدف فاروق أن يحول دون تعاظم عبد الله إقليمياً.

إن هذا الافتقار إلىٰ التنسيق بين الدول العربية قد ضاعفه غياب التخطيط الاستراتيجي من قِبل كل دولة عربية على حدة.. بالنسبة لمصر، كانت الحسابات السياسية، وليس الاستراتيجيا أو التكتيك العسكريين، هي التي طبعت بطابعها الحملة العسكرية المصرية. فلم يكن لدى نظام الحكم المصري أي فهم لتعقيد وخطر مغامرته العسكرية، وكان يرى التدخّل عبارة عن «تظاهرة عسكرية» وعمل بوليسي لمعاقبة «العصابات الصهيونية». وكان بعض المسؤولين المصريين يعتقد أن العصابات الصهيونية ستعمد إلىٰ الهرب بمجرد اقتراب القوات المصرية منها. هذه كانت حالة نموذجية تبيّن كيف أن المفاهيم الثقافية الخاطئة أعمت المسؤولين وأفسدت تحليلهم للأمور.

كانت مفاجأة للعرب جميعاً أن الجيش المصري دخل فلسطين في 15 أيار

---

(40) شكيب «حرب فلسطين» ص163.

(41) «تقرير لجنة التحقيق» ص 42 و122 ـ 23 و192.

(مايو). وقد جاء في أول خبر رسمي أن «العمليات في فلسطين هدفها هو مجرد تأديب العصابات الصهيونية»[42]. إن الوحدات المصرية، التي كان عددها أقل من 10,000 جندي، ولم يكن لديها أية خطة استراتيجيَّة، اندفعت عبر سيناء لكي تحتل شريط غزّة الساحلي أولاً، لتتقدّم بعد ذلك شمالاً لكي تنضم إلىٰ قوّات الجيش الأردني، وهذا ما فعلته في الرابع والعشرين من أيار (مايو). ولأن الجيش المصري لم يتمكّن من احتلال المستوطنات اليهودية المحصّنة، فإنه لم يجهد نفسه، بل آثر مواصلة الزحف مخلفاً هذه المستوطنات وراءه وقد أجهد الجنود المصريون أنفسهم في هذه العملية وأنشأوا مواقع ثابتة غير متحرِّكة بعكس مواقع القوات اليهودية المرنة والمتحرِّكة. وأصبحت خطوط التموين والنقل والمواصلات المصرية عرضة لهجمات الوحدات اليهودية[43]. يقول جمال عبد الناصر، الذي كان قائد لواء في حرب فلسطين «لم نحارب كجيش، بل كنا نتصرّف كوحدات منفصلة عن بعضها بعضاً ومنتشرة على مساحة واسعة من الأرض. فكانت النتيجة أن العدو نجح في تثبيتنا في مواقعنا محتفظاً لنفسه بحرية التحرّك»[44].

لقد لعبت الأمور السياسية والعلاقات العامة دوراً هاماً في تحديد طريقة تنفيذ الجيش المصري العمليات العسكرية، وفي بعض الأحيان عرقل تدخّل القيادة السياسية في القاهرة التخطيط العقلاني. لقد دأبت القيادة السياسية في القاهرة على الاتصال بالقادة في الميدان لإبلاغهم بواسطة الهاتف ما هي الأهداف التكتيكية. على سبيل المثال، في 21 أيار (مايو)، وفيما كانت وحدات مصرية منهمكة في التخطيط لإحدى العمليات، وجهت القاهرة إلىٰ

(42) عارف العارف «النكبة» المجلد الثاني ص381 وعلي «الحرب» ص108.

(43) عبد المنعم «أسرار 1948» ص 685 ـ 86، عارف العارف «النكبة» المجلد الثاني ص386، كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص 120 و143 ـ 44، العقاد «قضية فلسطين» ص 88 ـ 89، هيكل «المفاوضات» ص274.

(44) مذكرات عبد الناصر.

هؤلاء القادة رسالة عاجلة «نريد المجدل اليوم»[45]. كان يبدو أن ما يهم الزعماء المصريين هو تحقيق نصر عسكري رمزي لإحراز مكاسب سياسية في الداخل. وكانوا يتوهمون أنّه كلما تقدّم جيشهم في فلسطين، ضعفت المقاومة اليهودية. مرّة أخرى، إن هذا التفكير يكشف عمق الجهل الثقافي، والسياسي والاستراتيجي الذي اتصفت به إدارة العرب للحرب.

في 29 أيار (مايو) أصدرت الأُمم المتّحدة قراراً يدعو إلىٰ هدنة.. وافقت إسرائيل وشرق الأردن على قرار الأُمم المتّحدة، وأمر شرق الأردن قوّاته العسكرية بوقف إطلاق النار في الثاني من حزيران (يونيو). ومصر بدورها قبلت بصورة ضمنية وقف إطلاق النار، في أول الأمر، لم يلتزم العراق، وسورية، ولبنان بالهدنة، فاستمر القتال حتى الحادي عشر من حزيران (يونيو). وعلى أثر نقاش حاد جداً في جامعة الدول العربيَّة، أبلغت البلدان العربية الأربع، كل على حدة، الأُمم المتّحدة قبولها الهدنة. وهذا ما فعله أيضاً الأمين العام لجامعة الدول العربيَّة. إن المشاحنات والخلافات بين الدول العربية بشأن قرار الأُمم المتّحدة هي أمر كاشف للأمور. ذلك أن شرق الأردن، وبقرار منفرد، ودون التشاور مسبقاً مع حلفائه، خرق وحدة الصف معهم. إن الائتلاف العربي، بدلاً من العمل بصورة متماسكة، وبسبب تباين أهدافه في الحرب، بدأ يتصدّع[46].

عند إعلان الهدنة الأولى في 11 حزيران (يونيو) كان الجيش المصري قد تمركز في مواقع على الشريط الساحلي حتى مسافة نحو 14 ميلاً شمالي غزّة.

---

(45) هيكل «العروش» ص156، . شكيب «حرب فلسطين» ص 223 و425، عبد المنعم «أسرار 1948» ص 350 و352 و677. كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص 143، 152 ـ 53.

(46) راجع رسالة رياض الصلح رئيس الوزراء اللبناني إلىٰ نظيره العراقي مزاحم الباججي في شهر آب (أغسطس) 1948 في جريدة «النداء» القاهرية عدد 31 آب (أغسطس) 1948. «تقرير لجنة التحقيق» ص38، عبد المنعم «أسرار 1948» ص 179 ـ 89، العارف «النكبة» المجلد الثاني ص 550 ـ 51، العقاد «قضية فلسطين» ص 94 ـ 95.

غير أن وضعه كان أبعد ما يكون عن الأمان. وقد اشتكى قائد الميدان المصري شكوى مريرة إلىٰ رؤسائه في القاهرة من النقص في الرجال والعتاد وحذّر من خطر تمدّد الخطوط المصرية أكثر من اللازم. وأكّد في شكواه أن القوّات المصرية غير قادرة على التقدّم خطوة واحدة بدون أن تعرض للخطر وضعها الاستراتيجي بكامله، ولذلك فإنه لا يستطيع أن يتحمّل المسؤولية عن أية كارثة قد تحل بالجنود المصريين. وعمد القائد الميداني المصري إلىٰ تذكير رؤسائه بأن أهداف مصر السياسية يجب أن تنسجم مع إمكاناتها العسكرية[47].

كان الضبّاط المصريون معارضين منذ البداية للمشاركة في حرب فلسطين. وقد أعلن كل من وزير الحربية، حيدر، ورئيس الأركان، عثمان المهدي باشا، أنه ضد التدخّل. وعلى حد قول المهدي باشا «كنت معارضاً لدخول الحرب ولكنّهم أكرهوني على القتال»[48]. لقد عزّزت جولة القتال الأولى اعتقادهما أن الجيش، بموارده الشحيحة، لم يكن مستعداً لخوض معركة كبيرة. وكان العديد من صغار الضبّاط الذين خاضوا الحرب يشعرون بأن أسيادهم السياسيين في القاهرة خذلوهم وأهملوهم. ومع استطالة الحرب، ومحاصرة بعض الوحدات المصرية اعتبر العديد من صغار ضبّاط هذه الوحدات، الذين انضم كثيرون منهم لاحقاً إلىٰ تنظيم الضبّاط الأحرار، نظام الحكم الملكي مسؤولاً عن إذلال الجيش وهزيمته. ووجهت إلىٰ الملك وحاشيته تهمة الفساد وطعن العسكريين في الظهر عن طريق ابتياع أسلحة وذخائر فاسدة[49]. إن أقوال الضبّاط المصريين لم يكن القصد منها فضح القيادة

(47) شكيب «حرب فلسطين» ص 241 ـ 43، عبد المنعم «أسرار 1948» ص394، هيكل «العروش» ص 253 ـ 54.

(48) الأهرام، عدد 24 آذار (مارس) 1953، عبد المنعم «أسرار 1948» ص 190 ـ 93، علي «الحرب» ص108، العارف «النكبة» المجلد الثاني ص341.

(49) إن وجهات نظر جمال عبد الناصر الانتقادية لكيفية إدارة الحرب، بصفته ضابطاً ذا رتبة صغيرة في الجيش المصري، تعكس وجهات نظر معظم رفاقه. راجع كتاب «فلسفة الثورة» و«مذكرات عبد الناصر». راجع أيضاً علي «الحرب» ص110.

السياسية العاجزة فحسب، بل كانت ترمي أيضاً إلىٰ إظهار براءتهم مما حدث واحتجاجهم على هزيمتهم التي انتحل لها رؤساؤهم أسباباً باطلة[50]. كان هؤلاء الضبّاط يخشون أن تلصق القيادة السياسية بهم مسؤولية الهزيمة. وكانت ثمة مؤشرات في هذا الاتجاه بعد توقيف المواوي وغيره من كبار الضبّاط واستجوابهم عند انتهاء الحرب[51].

إن المؤرخين العرب يردّدون ظلامات الضبّاط الأحرار ويبينون الفارق بين تضحياتهم النبيلة والسلوك الأناني للنخبة الحاكمة. ويدعي بعض مؤلفي الروايات التاريخية أن سبب هزيمة الجيش المصري يكمن في الأسلحة الفاسدة التي ابتاعها الملك فاروق وحاشيته الفاسدة[52]. بهذا المعنى أسهم المؤرخون العرب بصورة غير مباشرة في الحط من سمعة النظام القديم وإضفاء الشرعية على العسكرتاريا (الكولونيالية) في العالم العربي.

جولة القتال الثاني، 9 تموز (يوليو) ـ 18 تموز (يوليو)

استغلّت إسرائيل وقف إطلاق النار الأول استغلالاً كاملاً لإعادة تجميع قواتها واستيراد أسلحة ثقيلة من الخارج، وبذلك أمالت كفّة الميزان لمصلحتها بصورة حاسمة. لم تكن إسرائيل تملك أسلحة وتجهيزات ثقيلة في جولة القتال الأولى. وفي حين أن إسرائيل نجحت في الاستفادة من الهدنة للتعويض من تجار الأسلحة عن هذا النقص، واجهت الدول العربية صعوبات في الحصول على ذخائر وأسلحة ثقيلة كانت في أمسّ الحاجة إليها. ويبدو أيضاً أن القادة العرب لم يأخذوا الحرب مأخذ الجد ولم يخطّطوا لمجابهة طويلة[53]. ويقول

(50) كيلاني «الاستراتيجيّة» ص154.

(51) العارف «النكبة» المجلد الثالث ص 718، 743.

(52) علي «الحرب» ص 249 ـ 50، العارف «النكبة» المجلد الرابع ص 850 ـ 51، لمزيد من التفاصيل عن النقاش الذي أحاط بهذه المزاعم، راجع مقالات إحسان عبد القدوس في مجلة «روز اليوسف» 13 و20 و27 حزيران (يونيو) 1950.

(53) محمد عزة دروزة «القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها» (بيروت ـ 1959) =

المؤرخون الإسرائيليون، أن الحظر الذي فرضته الأُمم المتّحدة على الأسلحة، ونتج عنه نقص شديد في الذخائر وقطع الغيار في الجانب العربي، قد ساعد المجهود الحربي الإسرائيلي مساعدة كبيرة[54].

عندما بدأت جولة القتال الثانية في التاسع من تموز (يوليو) كانت إسرائيل على أتم استعداد، فشنّت هجمات معاكسة مدمِّرة، وبالتالي كانت لها اليد العليا في ميدان المعركة. في الثاني عشر من تموز (يوليو) احتلّت إسرائيل اللد والرملة. البلدتين الفلسطينيتين الهامّتين الواقعتين على الطريق الرئيسيّة بين تل أبيب والقدس، وطردت عدداً كبيراً من سكانهما. كان لهذا الاختراق عواقب نفسية مدمّرة بالنسبة للفلسطينيين وبالنسبة لميزان القوى بين إسرائيل وجيرانها العرب. وقد أدّى سقوط اللد والرملة إلىٰ مشاحنات قاسية بين شرق الأردن ومصر. وقد اتهم الكتّاب العرب عبد الله وقائد جيشه البريطاني بالخيانة بسبب تقصيرهما في الدفاع عن المدينتين. مع أن غلوب كان قد حذَّر من عدم إمكانية الاحتفاظ بهاتين المدينتين في حال استئناف القتال[55].

أكثر من ذلك إن بعض الكتّاب اتّهموا عبد الله بالتواطؤ مع الصهيونيين وادعوا أن الضبّاط البريطانيين ولّوا وجوههم إلىٰ الشطر الآخر عندما كانت

= ص175 ـ 77، التل «كارثة فلسطين» ص 203، 277 ـ 78، عبد المنعم «أسرار 1948» ص439، علي «الحرب» ص213، العارف «النكبة» المجلد الثالث ص 566 ـ 67.

(54) امينزور إيلان «أصول سباق التسلح العربي ـ الإسرائيلي: الأَسلحة، الحظر، القدرة العسكرية والقرار في حرب فلسطين سنة 1948» (لندن، 1996) ص 221 ـ 234، بني موريس «إعادة اختلاف 1948» مجلة دراسات فلسطينية 271/ 2 (شتاء سنة 1998) 92 ـ 93.

(55) آڤي شلايم «تواطؤ عبر نهر الأردن: الملك عبد الله، والحركة الصهيونية وتقسيم فلسطين» (أُكسفورد، 1988) ص 262 ـ 63، عبد المنعم «أسرار 1948» ص 200 و443، 450 ـ 51، 453 ـ 54، علي «الحرب» ص 411، العقاد «قضية فلسطين» ص 96 ـ 97، هيكل «العروش» ص 257 و327. حتى لجنة التحقيق النيابية العراقية التي لم تكن غير ودية لشرق الأردن، ذكرت بصورة ضمنية أن المدينتين تم تسليمهما بدون قتال. راجع «تقرير لجنة التحقيق» ص 209 ـ 211.

القوّات الصهيونية تحتل المدينتين ولطرد سكانهما الفلسطينيين. أحد الكتّاب أكّد أن «الملك عبد الله وافق على الاجتماع والتفاوض مع العدو، وأنّه بذلك اعترف بوجود إسرائيل، وأنّه بصفته القائد الأعلى للقوّات العربية طعن جيشه وأمّته في الظهر، وغرس إسفيناً في الصفوف العربية استفاد منه العدو، الأمر الذي أدّى إلىٰ تدمير الائتلاف العربي[56].

إن الجيوش العربية، التي كانت أبعد ما تكون عن تنسيق عملياتها في جولة القتال الثانية، أخذت تتصرّف متفرّقة لأن شرق الأردن ومصر لم يكونا يثقان ببعضهما بعضاً[57]. وبعد سقوط اللد والرملة، اشتكى القائد الميداني المصري إلىٰ رؤسائه في القاهرة من فقدان التنسيق بين مختلف الجيوش العربية وطلب تحديداً واضحاً لخطوط عمليات قوّاته[58]. ونجحت إسرائيل في توجيه ضربات قاسية للجيوش العربية، وخاصة جيش مصر. وعلى حد قول «مؤرخ جديد» إسرائيلي «إن الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى تحولت بعد شهر تموز (يوليو) 1948 إلىٰ صراع مصري ـ إسرائيلي، بينما كان شرق الأردن و(العراق، ولبنان، وسورية) يقف موقف المتفرّج»[59].

في الثامن عشر من تموز (يوليو)، اليوم الذي تمّ فيه الاتفاق على الهدنة الثانية، أوجز القائد الميداني المصري الموقف العسكري بعبارات تبعث على الكآبة: فقد كان التقرير الجارح في صراحته الذي قدّمه المواوي، يعكس تدهور الوضع الاستراتيجي المصري منذ استئناف القتال في 9 تموز (يوليو). وكرّر

---

(56) علي «الحرب» ص416. بيد أن عبد الله وجّه اللوم إلىٰ مصر والحكومات العربية الأخرى في خسارة اللد والرملة. «عبد الله بن الحسين ـ التكملة» في كتاب عمر المدني «الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين» (عمان ـ 1979) ص261، هزاع المجالي «مذكراتي» (عمان 1960) ص 77 ـ 79.

(57) عبد المنعم «أسرار 1948» ص 404 ـ 405.

(58) شكيب «حرب فلسطين» ص 278 ـ 79.

(59) موريس «إعادة اختلاف 1948» 90.

التقرير الحديث عن نقص في عدد الدبابات والمعدات الثقيلة الأخرى لدى الجيش، وعن هبوط كميات الذخائر إلىٰ مستويات خطرة، وعن فقدان التنسيق بين الجيوش العربية. وتحدَّث التقرير متفجعاً عن فقدان التنظيم الداخلي، والاحتياطي الاستراتيجي، والتدريب الصحيح للجنود النظاميين، الأمر الذي أدَّى إلىٰ أخطاء فاضحة في ساحة المعركة. ومع أن التقرير أشار بصورة ضمنية إلىٰ تدني معنويات الجنود المصريين، فإن مصادر أخرى أعطت هذا العامل مزيداً من الأهمية[60]. وقد شدَّد القائد الميداني على أن قوَّاته أجهدت نفسها إلىٰ أبعد حد بدون أن تتوفر لها احتياطيات استراتيجيَّة تستطيع الاعتماد عليها. وأنذر التقرير أيضاً بأن الوضع الاستراتيجي للقوَّات المصرية قد ضعف لأنها لم تعد قادرة على الدفاع عن خطوط إمداداتها ومواصلاتها الطويلة، وقال التقرير في الختام إنه ما لم يكن القادة المصريّون مستعدين لإصلاح هذه المشاكل العسكرية الجسيمة فإنّه يدعو صراحة القيادة في القاهرة إلىٰ إيجاد حل سياسي للأزمة[61].

ولم يقف الأمر عند حد عدم تنسيق الاستراتيجيَّة العسكرية بين الدول العربية، بل إن هذه الدول تخاصمت حول كيفيَّة الردّ على قرار وقف إطلاق النار الذي أصدرته الأُمم المتّحدة في الخامس عشر من تموز (يوليو). ومع أن اللجنة السياسية لجامعة الدول العربيَّة وافقت في السادس عشر من تموز (يوليو) على وقف إطلاق النار في القدس فقط، فإن الأمين العام للجامعة عكس هذه الموافقة بعد يومين بموافقته على هدنة عامة. مرّة أخرى كان لهذا التبديل في موقف اللجنة السياسية علاقة بأن شرق الأردن ومصر كانا يفضلان الالتزام بالهدنة. وقد أبلغ الملك عبد الله رئيس وزراء لبنان رياض الصلح أن شرق الأردن لا يستطيع الاستمرار في القتال بسبب افتقاره إلىٰ الذخائر. وحذا العراق

(60) شكيب «حرب فلسطين» ص430.

(61) المصدر نفسه ص 291 ـ 94.

حذو شرق الأردن. وسواء أكان شرق الأردن يملك كمية كافية من الذخائر أم لا ـ كان اعتقاد الصلح أن حجّة نقص الذخائر هي قناع لنقص الإرادة السياسية للقتال ـ فإن قراره بقبول وقف إطلاق النار ترك مصر تحت رحمة هجوم إسرائيلي. ولم تكن لدى مصر ذاتها شهية لمزيد من القتال[62]. إن التوترات السياسية ضمن الائتلاف العراقي كانت تمزّق هذا الائتلاف إرباً إرباً[63] ومن الناحية النفسيَّة، فإنالاختلاف والمشاحنات حول وقف إطلاق النار أضعفت عزيمة الجنود العرب وجعلتهم يعزفون عن تعريض حياتهم للخطر[64].

الهدنة الثانية، 19 تموز (يوليو) ـ 14 تشرين الأوَّل (أكتوبر)

عندما تمّ الاتفاق نهائياً في 18 تموز (يوليو) على وقف إطلاق النار للمرة الثانية، كان الافتراض أن هذه الهدنة ستكون غير محدودة المدة. استفادت إسرائيل من هذه الهدنة لتوطد وضعها المتفوق بواسطة التحرّش بالقوَّات المصرية ومهاجمتها. كانت القوَّات الإسرائيلية تضرب على هواها المواقع المصرية المبعثرة وضعف وسائل الدفاع عن نفسها، والتي كانت قد اتخذت الوضع الجامد ولم تكن تمتلك موارد كافية ولا وحدات احتياطيّة.

وبدلاً من أن ينسِّق القادة العرب استراتيجيتهم العسكرية، شرعوا يتخاصمون في جامعة الدول العربيَّة ويوجهون اللوم إلىٰ بعضهم بعضاً عن الأداء

---

(62) مذكرة رياض الصلح السرِّيَّة نُشرت في جريدة «الحياة» البيروتية بتاريخ 16 آب (أغسطس) 1952. راجع أيضاف مكتب السجلات العامة البريطاني، القاهرة إلىٰ وزارة الخارجية، 31 آب (أغسطس) 1948، وزارة الخارجية البريطانية 371/ 68376. ممدوح الروسان، «العراق وقضايا الشرق العربي القومية» (بيروت ـ 1979) ص 268 ـ 71. رسالة رئيس الوزراء اللبناني رياض الصلح إلىٰ رئيس الوزراء العراقي مزاحم الباججي بتاريخ 14 آب (أغسطس) 1948 استشهد بها القصري في كتاب «حرب فلسطين»، ص 205 ـ 206، كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص128، شكيب «حرب فلسطين» ص291.

(63) «تقرير لجنة التحقيق» ص42.

(64) كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص129

السقيم في ساحة المعركة. وفاقمت الهزيمة الانقسامات في صفوف العرب. وقد وصل انعدام الثقة بين مصر وشرق الأردن إلىٰ الأوج. وعندما زار الملك عبد الله مصر في شهر حزيران (يونيو) 1948 خلال الهدنة الأولى، بصفته القائد العام للقوَّات العربية، طلب أن يزور مقر القيادة العسكرية المصرية للقوَّات في فلسطين. رفضت مصر تلبية رغبته. وكتب الملك عبد الله أن الزيارة لم تحقِّق أية نتيجة إيجابية لأن قيادته ظلّت مجرد قيادة رمزية(65).

استمرت المشاحنات، المرة تلو المرة، بين فاروق وعبد الله، حول حجم علم كل من البلدين في مناطق وجودهما في فلسطين. اشتكى فاروق شكوى مرة إلىٰ وسطاء للأمم المتحدة قائلاً إن العلم الأردني في إحدى المدن التي تحت سيطرة القاهرة أكبر حجماً ببضعة سنتيمترات من العلم المصري! إن التوترات والمناوشات طبعت بطابعها العلاقات بين الوحدات المصرية والأردنية في ساحة المعركة. علاوة على ذلك، قلما كتب أحد شيئاً عن الاحتكاك والخلاف بين القوَّات العسكرية العربية والفلسطينيين. على سبيل المثال، أساءت القوات المصرية معاملة الفلسطينيين ولم تثق بهم واتهمتهم بالغدر. وازدادت الخلافات بين الوحدات العسكرية المصرية والسكَّان المحليين بعد أن حاولت الوحدات المصرية نزع سلاح المقاتلين الفلسطينيين(66).

وقد بدا أن فاروق وعبد الله لم يدركا قط خطورة الحرب ضد إسرائيل. وكان الظاهر منهما أن اهتمامهما بوضع بلديهما الاستراتيجي أكثر من اهتمامهما بوضع إسرائيل الاستراتيجي. عندما اجتمعت جامعة الدول العربيَّة في

---

(65) سليمان موسى «أيام لا تنسى» (عمان ـ 1982) ص313، كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص134، العقاد «قضية فلسطين» ص96.

(66) عارف العارف «النكب» المجلد الثاني، ص 397 و400 و652 والمجلد الثالث ص728. مكتب السجلات العامة البريطاني، من سير ر. كامبل (القاهرة) إلىٰ مستر بيفن (وزارة الخارجية البريطانية 6 تموز (يوليو) 1948) وزارة الخارجية البريطانية 371/ 68857.

الإسكندرية في الثامن من أيلول (سبتمبر)، اقترحت مصر إنشاء «حكومة عموم فلسطين» في غزّة، وكان هذا الاقتراح ابتعاداً جذرياً عن الموقف السابق للجامعة. وبذلك اعترفت مصر نظرياً بحق الفلسطينيين في تقرير المصير. إن هزيمة مصر في ساحة المعركة كانت السبب في هذا التبديل في توجه سياستها. غير أن تبنيها لحكومة عموم فلسطين كان مردّه إلى الخلافات العربية والسياسات المحلية أكثر مما هو عائد إلى شدة المعارضة لإسرائيل[67]. لقد كانت الغاية المباشرة من حكومة عموم فلسطين المقترحة هي «إيجاد نقطة تركيز لمعارضة عبد الله واستخدام هذه الحكومة أداة لإحباط طموحه إلى توحيد الأجزاء العربية من فلسطين مع شرق الأردن»[68]. وفي هذا السياق، أوضح النقراشي لوسطاء الأُمم المتّحدة أن أية تسوية ناتجة عن ضم شرق الأردن لفلسطين العربية ستؤدي إلى تدمير ميزان القوى العربي[69]. استشاط عبد الله غضباً إذ إنه رأى أن هذه الحركة المصرية موجهة تحديداً ضد طموحه الإقليمي. انسحب الوفد الأردني من اجتماع الإسكندرية، وأعلن شرق الأردن بوضوح أنّه سوف «ينازع» شرعية هذه الحكومة[70]. إن إقامة حكومة عموم فلسطين في غزّة كانت بمثابة المغناطيس الجاذب للمنافسة بين مصر وشرق الأردن، كما أنّها عمقت الريبة وعدم الثقة في الصفوف العربية خلال الحرب وبعدها[71].

---

(67) علي «الحرب» ص 236 ـ 38، «أوراق حكومة عموم فلسطين» (بيروت، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بدون تاريخ). وقيل أيضاً إن مصر صادرت شحنة أسلحة أرسلتها بريطانيا إلى شرق الأردن. وقد زاد هذا العمل تسميم العلاقات المصرية ـ الأردنية. راجع عارف العارف في «النكبة» المجلد الثاني ص 452 و594، وآفي شلايم في «صعود وسقوط حكومة عموم فلسطين في غزّة» مجلة دراسات فلسطينية 20/ 1 (1990) 39 ـ 40.

(68) شليم «حكومة عموم فلسطين» ص40.

(69) العارف «النكبة» المجلد الثالث ص675.

(70) مكتب السجلات العامة البريطاني E12817 وزارة الخارجية 371/ 68642 بدون تاريخ.

(71) «تقرير لجنة التحقيق» ص44، شكيب «حرب فلسطين» ص309، العقاد «قضية =

جولة القتال الثالثة: 15 تشرين الأوَّل (أكتوبر) 5 تشرين الثاني (نوفمبر)

بينما كانت مصر وشرق الأردن يتخاصمان، كانت إسرائيل توطد وضعها الاستراتيجي. في منتصف تشرين الأوَّل (أكتوبر) خرقت إسرائيل الهدنة واستفردت القوَّات المصرية بهجوم كاسح في الجنوب. وقد حيدت القوَّات الإسرائيلية سلاح الجو المصري الصغير وطوّقت الوحدات البرِّيَّة المصرية في عدة مواقع. وشهدت هذه الجولة من القتال كثافة في الغارات الجويَّة الإسرائيلية على المواقع المصرية. كانت إسرائيل مسيطرة على الأجواء وكانت للقوَّات المصرية ضربات مؤلمة. إن هذا التطور الجديد بدّل تبديلاً دراماتيكياً التوزّع الاستراتيجي للقوَّات بين إسرائيل وجيرانها العرب، فكان ذلك شهادة لقدرة إسرائيل على الاستفادة من وقف إطلاق النار لبناء قدرة هجومية وللتخطيط استراتيجياً لكسب الحرب.

لقد وجد القائد الميداني للقوَّات المصرية قوّاته محاصرة ومعزولة في النقب فطلب إمداده بالذخائر بواسطة طائرات صغيرة. وطلب أيضاً التدخّل الفوري من قبل القوَّات الأردنية والعراقية لتخفيف الضغط عن جبهته. وعندما دعا مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة إلىٰ وقف لإطلاق النار في الثاني والعشرين من تشرين الأوَّل (أكتوبر)، كانت مصر قد خسرت سيطرتها على

= فلسطين» ص 104 ـ 105، هيكل «المفاوضات» ص 290 ـ 93، هيكل «العروش» ص328، شليم «حكومة عموم فلسطين» ص43. ظل موضوع إقامة حكومة فلسطينية مستقلة يسمِّم العلاقات بين الأردن ومصر مدة طويلة بعد سنة 1948. راجع «مضبطة الجلسة الأولى من دور الاجتماع العادي الثاني عشر» لمجلس جامعة الدول العربيَّة، 25 آذار (مارس 1950)، ومضبطة الجلسة الثانية لمجلس جامعة الدول العربيَّة، 27 آذار (مارس) 1950، ومضبطة الجلسة الثالثة لمجلس جامعة الدول العربيَّة، 29 آذار (مارس) 1950، ومضبطة الجلسة الرابعة لمجلس جامعة الدول العربيَّة، 8 نيسان (أبريل) 1950.

منطقة النقب بكاملها، وقوّاتها معزولة في ثلاثة مواقع متفرقة ليس بينها اتصال. وكانت مصر قد خسرت الحرب كلياً تقريباً. وما لم تقدم الجيوش العربية على عملية إنقاذ بالتنسيق مع مصر، تكون إسرائيل جاهزة لتوجيه ضربة ساحقة إلىٰ مصر[72].

في ضوء اختلاف أهداف الدول العربية وعمق ارتيابها ببعضها بعضاً، لم يتوفَّر رد عربي جماعي. بعد يوم واحد من قرار مجلس الأمن الداعي إلىٰ وقف إطلاق النار، زار النقراشي عمان لحضور اجتماع لرؤساء الوزراء العرب من أجل البحث في سُبُل ووسائل معالجة موضوع الهجوم الإسرائيلي على القوات المصرية في النقب. ولما استوضح الملك عبد الله الأوضاع الحقيقيَّة للجيش المصري، أجاب النقراشي بهدوء وبلهجة الدفاع عن النفس قائلاً إن «الجيش المصري في وضع جيد ولا حاجة لأخذ الدعاية الصهيونية مأخذ الجد». ثم، عندما عاد بعد ظهر اليوم ذاته أعضاء اللجنة السياسية للجامعة للاجتماع مع رؤساء الوزراء، استوضح عبد الله عما تستطيع الدول العربية أن تفعله لمساعدة الجيش المصري في النقب. فكان جواب النقراشي «إن الحكومة المصرية لا تطلب مساعدة من أحد وقد جئت إلىٰ هنا لأعرف لماذا لم تقم الدول العربية الأخرى بشن هجوم لتخفيف الضغط عن الجيش المصري. أين الجيش العراقي وأين الجيش الأردني؟». عند هذا الحد انسحب الملك عبد الله من الاجتماع دون أن يرد على كلام النقراشي. عقد اجتماع ثالث في المساء، وتم فيه الاتفاق على أن تضع جيوش العراق وشرق الأردن وسورية خطة لمساعدة القوَّات المصرية المحاصَرة في الفالوجة. بيد أن هذه الخطة لم تخرج قط إلىٰ حيِّز الوجود بسبب الرّيب المتبادل وعدم الثقة[73]. وقد عاد النقراشي إلىٰ القاهرة

(72) شكيب «حرب فلسطين» ص322، كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص137، علي «الحرب» ص 244 ـ 45.

(73) شكيب «حرب فلسطين» ص ضبّاط255 ـ 26، العارف «النكبة» المجلد الثالث=

خالي الوفاض. أصبحت الحرب في فلسطين حرباً خاصة أكثر مما هي حرب عربية ـ إسرائيلية.

في تلك الأثناء، أخذت تتدهور أوضاع القوّات المصرية المحاصَرة في الفالوجة ـ والتي كانت تمثّل ثلث الجيش المصري ـ حسب قول عبد الناصر ـ وكان التدهور سريعاً، لا سيما وأنه لم يظهر ما يشير إلىٰ أيّة إغاثة. ومع أن مجموع عدد القوات المصرية ارتفع ارتفاعاً كبيراً بين 15 أيار (مايو) 1948 وشهر تشرين الأوَّل (أكتوبر) من 10,000 إلىٰ نحو 45,000 فإنّها لم تبلغ مبلغ الند لقوّات الدفاع اليهودية التي كانت أفضل منها تسليحاً وتدريباً، والتي كانت متفوقة عددياً على أعدائها العرب. إن القائد الميداني المصري، الذي كان في حالة من القنوط واليأس، طلب من حكومته إيجاد حل سياسي للصراع[74].

أحد الأسئلة الذي يثير الفضول هو لماذا لم يتقدَّم شرق الأردن لمساعدة مصر؟ المصريون يعتقدون أنّهم طُعنوا في الظهر. وهم يوجهون اللوم إلىٰ الملك عبد الله لأنه عرَّض أمن الجيش المصري للخطر بانسحاب قوّاته من اللد والرملة وبتقاعسه أمام الهجوم الإسرائيلي على القوّات المصرية المحاصَرة. وقد ادَّعى وزير الحربية المصري في جلسة مغلقة للبرلمان المصري بتاريخ 30 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 أنه «إذا كانت الجيوش العربية لا تقاتل، فيجب أن أعلن هنا أن مصر ستقاتل وحدها وبوسائلها»[75]. وبكلام مماثل، قال النقراشي أمام البرلمان أن مصر، خلافاً للدول العربية الأُخرى، استجابت فعلاً لطلبات المساعدة العسكرية التي قدّمها شرق الأردن. وقال أيضاً إن القوّات اليهودية

= ص ص: 749 ـ 51، بدري «الحرب» ص 410 ـ 12، كيلاني «الاستراتيجيَّة» ص137.

(74) شكيب «حرب فلسطين» ص 235 ـ 42، عبد المنعم «أسرار 1948» ص506، العارف «النكبة» المجلد الرابع ص801.

(75) شكيب «حرب فلسطين» الصفحتان 364 و374.

كانت ستحتل القدس لو لم تبادر مصر إلىٰ مساندة الجيش الأردني[76].

إن ما توصّلت إليه لجنة التحقيق النيابية العراقية يدحض أقوال النقراشي. فقد أكّد العراقيون، المرة تلو المرة، أن مصر كانت تلجأ إلىٰ التسويف ولم تستجب لطلباتهم الخاصة بالتعاون العسكري. وتقول لجنة التحقيق إن مصر، منذ البداية، رفضت توحيد الصف عسكرياً مع بقية الدول العربية[77]. ولكن النتيجة التي توصّلت إليها لجنة التحقيق يخالفها بعض الضبّاط العراقيين الذين خدموا في فلسطين، كما خالفها العديد من المؤرخين العرب الذين يؤكّدون أن الأردنيين والعراقيين على حدّ سواء، لم يفعلوا الكثير للمساعدة في تخفيف الضغط عن القوّات المصرية المحاصَرة. وبدا أن شرق الأردن والعراق أدارا آذاناً صمّاء إلىٰ نداءات القوّات المصرية. ويقال إن الملك عبد الله شعر بالسرور لأن إسرائيل أذلّت خصمه العربي الرئيسي ـ مصر. إن الكتّاب العرب يتهمون عبد الله وقائد جيشه البريطاني، غلوب باشا، بالتواطؤ مع القوّات اليهودية لطرد القوّات المصرية من فلسطين وتقاسم الأرض فيما بين الجانبين. إن كتابة التاريخ العربي بمجمله، لا يعطي الكثير من الصدقية إلىٰ مزاعم عبد الله وغلوب بأن شرق الأردن كان منشغلاً انشغالاً كاملاً بالحرب ولم يكن بقدرته أن يخصِّص أَو يجنِّد قوات جديدة لمساعدة مصر بصورة فعَّالة. وكان الرأي أن إپشتاين وأسياده البريطانيين مذنبون بالتآمر ضد الأمة العربية[78].

---

(76) المصدر السابق ص378.

(77) «تقرير لجنة التحقيق» ص 213 ـ 15.

(78) التل «كارثة فلسطين» ص 243 ـ 67، العارف «النكبة» المجلد الثالث ص 611، 659 ـ 60، 744 ـ 45، المجلد الرابع ص 799، 820 ـ 22، 839 ـ 40، 890 ـ 96، عبد المنعم «أسرار 1948» ص 541 ـ 43، 686 ـ 87، العقاد «قضية فلسطين» ص102، عبد الساتر «كارثة فلسطين» ص56، هيكل «المفاوضات» ص306. قدمت لجنة التحقيق النيابية العراقية رواية تختلف عن الحديث العربي السائد. أكّدت اللجنة أنّه رغم محاولات العراق المتكررة لمساعدة القوّات المصرية المحاصَرة، لم تنسق القاهرة أنشطتها العسكرية مع بغداد بسبب الخلافات السياسية والشكوك مع الهاشميين. «تقرير لجنة التحقيق» ص 43 ـ 46.

الجولة الأخيرة: كانون الأوَل (ديسمبر) 1948
كانون الثاني (يناير) 1949

كانت لإسرائيل اليد العليا خلال جولة الحرب الأخيرة. وقد واصلت ضغطها على القوَّات المصرية المحاصَرة في الفالوجا لإرغامها على الاستسلام، لكي توجّه بذلك صدمة نفسية ساحقة إلىٰ مصر وترغم القاهرة على السعي من أجل السَّلام. وعندما اشتكى مسؤولون عرب ومصريون إلىٰ الجنرال رايلي Riley كبير مراقبي الأُمم المتّحدة في فلسطين، من انتهاكات إسرائيل لوقف إطلاق النار، قال لهم بصراحة جافّة إن الهدنة الحالية غير قابلة للاستمرار بسبب السيطرة الإسرائيلية العسكرية. وكانت نصيحة الجنرال ريالي للمسؤولين العرب أن يفاوضوا لعقد هدنة دائمة مع إسرائيل.

بين العاشر والثاني عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) اجتمع القادة العسكريون العرب في القاهرة لوضع تقييم للوضع العسكري. وقد رفعوا أحد أكثر التقارير شمولية، إلىٰ اللجنة السياسية لجامعة الدول العربيَّة. لقد قارن التقرير بين كفتي ميزان القوى للقوَّات الإسرائيلية والعربية واستنتج أن القوَّات الإسرائيلية تتمتع بتفوّق استراتيجي على سائر الدول العربية. وحذّر القادة العسكريون في تقريرهم من أن الوضع الدفاعي الراهن للجيوش العربية مصيره أن يؤدي في نهاية الأمر إلىٰ هزيمة في حرب فلسطين. وأورد التقرير أربعة أسباب للأداء الهزيل الذي اتصفت به الجيوش العربية: (1) لم تكن الجيوش العربية مستعدة للقتال في حرب طويلة، (2) أخفقت الدول العربية في تعبئة قوَّات وموارد كافية واستخدامها بصورة فعّالة لكسب الحرب، (3) لم تكن هناك قيادة موحّدة لإدارة وتنسيق جهود الجيوش العربية المختلفة، (4) خلافاً لإسرائيل لم تستفد الدول العربية من الهدنتين للتعويض عن النواقص العسكرية[79].

(79) «تقرير لجنة التحقيق» ص 218 ـ 20، عبد المنعم «أسرار 1948» ص: =

ركّزت توصيات القادة العسكريين في المقام الأول على الحاجة إلىٰ إتاحة الفرصة للجيوش لكي تخوض الحرب بطريقة مهنية وبدون أن تعرقل أعمالها اعتبارات سياسية. وقبل اتخاذ أي قرار عسكري، حثَّ التقرير السياسيين على إبقاء القادة العسكريين لبلدانهم على اطلاع بالأهداف السياسية. في نهاية التقرير دعا القادة العسكريون رؤساءهم المدنيين إلىٰ تعبئة كل موارد الدول العربية من أجل توفير ما يحتاج إليه الأمر من الرجال والعتاد لكسب هذه الحرب[80].

مرة أخرى، وعلى غرار ما حدث للتقارير السَّابقة، لم يُترجم هذا التقرير إلىٰ عمل. فلم يكن الحكام العرب قادرين على تنسيق استراتيجيتهم العسكرية والاتفاق على خطة مؤقتة لإغاثة الوحدات المصرية المحاصَرة في الفالوجا. كانت هناك انشقاقات عميقة ضمن الائتلاف العربي حالت دون قيام تعاون عسكري ذي معنى. ومع نهاية العام 1948، بدا أن المسؤولين المصريين قد أدركوا هذه الحقيقة وكان أملهم أن يوجد حل سياسي يمكنهم من سحب قوَّاتهم من الفالوجا بطريقة مشرفة[81]. وبالرغم من هذا الوعي المتأخر للأمور، لم يوافق القادة المصريون على القرار الذي تخذه مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بوقف إطلاق النار بتاريخ 16 تشرين الثاني (نوفمبر) ما لم يوجد حل للّواء المحاصَر في الفالوجا.

= 374 ـ 75. شكيب «حرب فلسطين» ص348، علي «الحرب» ص 252 ـ 54، العارف «النكبة» المجلد الثالث، ص قوَّات 734 ـ 37.

(80) «تقرير لجنة التحقيق» ص 218 ـ 20، عبد المنعم «أسرار 1948» ص 374 ـ 75، شكيب «حرب فلسطين» ص348، علي «الحرب» ص 252 ـ 54، العارف «النكبة» المجلد الثالث، ص 754 ـ 57. بعض المؤرخين العرب يؤكد أن «القيادة اليهودية كانت على علم بالنتائج السرِّيَّة لهذا الاجتماع عن طريق القيادة الأردنية وعن طريق البريطانيين، الذين يقال إنهم كانوا متواطئين مع الوكالة اليهودية. العارف «النكبة» المجلد الثالث، ص 765، علي «الحرب» ص254، شكيب «حرب فلسطين» ص 249 ـ 53.

(81) شكيب «حرب فلسطين» ص 354 ـ 57، 382.

في 22 كانون الأَول (ديسمبر) اغتنم قادة إسرائيل الفرصة لعلمهم أن عبد الله لن يساند مصر عسكرياً، فشنّوا ثاني هجوم على مصر. ونجحوا في هذا الهجوم بإرغام القوّات المصرية على التراجع عبر الحدود الدولية. ومرة أخرى ظلت جامعة الدول العربيَّة سلبية في موقفها ولم تقدم على عمل عربي مشترك للردّ على الهجوم الإسرائيلي الجديد. وبدافع الرغبة اليائسة في إيقاف اندفاع إسرائيل إِلىٰ الأراضي المصرية، ناشدت القاهرة كلاً من لندن وواشنطن أن تقدم مساعدة، وقد رأت بريطانيا في تهديد إسرائيل للسيادة المصرية فرصة لتطبيق أحكام معاهدة سنة 1936 والحصول على إعجاب حليفتهم المحاصرة عن طريق رسم خطوط حمر لتوسع إسرائيل[82]. إن المؤرخين العرب يلوذون بالصمت بشأن التدخل البريطاني لمصلحة مصر. إن إعطاء البريطانيين أي فضل في إيقاف الزحف الإسرائيلي إِلىٰ عمق الأرض المصرية، من شأنه أن يتعارض مع الصورة التي يرسمها المؤرخون العرب لبريطانيا كمؤيدة فاعلة للصهيونيين. لقد ادعى أحد الكتّاب «أن بريطانيا قد تكون شجعت العرب على الدخول في حرب لأنها كانت تعلم علم اليقين أنّهم لا يستطيعون ربح الحرب بسبب ضعف جيوشهم. وإن تدمير الجيوش العربية سيجعل العرب معتمدين على الغير وبذلك تتم المحافظة على النفوذ البريطاني في المنطقة»[83]. وكان كاتب عربي آخر أكثر صراحة إذ قال «في التحليل النهائي كان البريطانيون مصدر الشر»[84].

---

(82) مكتب السجلات العامة البريطاني، القاهرة إِلىٰ وزارة الخارجية البريطانية، 29 كانون الأول (ديسمبر) 1948، وزارة الخارجية 371/ 69289، شكيب «حرب فلسطين» ص 400 و407. إن الملك فاروق بدافع سعيه اليائس لإيقاف الاندفاع الإسرائيلي إِلىٰ الأراضي المصرية، اجتمع مع سفير الولايات المتحدة ووجّه رسالة عاجلة إِلىٰ الرئيس هاري ترومان يلح عليه فيها لكي يتدخّل شخصياً لإيقاف تقدم القوّات الإسرائيلية. هيكل «المفاوضات» ص300.

(83) عبد المنعم «أسرار 1948» ص 193 ـ 94، 196 ـ 97 و694. هيكل «المفاوضات» ص274.

(84) العارف «النكبة» المجلد الثالث، ص665.

لقد أرادت بريطانيا أيضاً، وفق أقوال اثنين من الكتّاب العرب، أن تبرهن للعالم أن مصر عاجزة عن الدفاع عن قناة السويس، الأمر الذي يتطلّب وجود القوّات البريطانية هناك[85]. إن ما يبعث على السخرية أن كتابة التاريخ التقليدية الصهيونية والعربية تنظر من كلا الجانبين إلىٰ بريطانيا باعتبارها العدو. وسياسة بريطانيا تجاه فلسطين كانت عامل توازن صعب، إذ إنها كانت ممزّقة بين مصالحها الإمبريالية من جهة وما يفرضه عليها تحالفها مع الولايات المتحدة من جهة أخرى. مع حلول نهاية سنة 1948، كانت بريطانيا شديدة الحرص على شرذمة وإضعاف الوضع العربي وصولاً إلىٰ احتمال «سلم تفرضه إسرائيل»، وبلغ حرصها هذا حدّ المحاولة الفاشلة للتوسط بين مصر وشرق الأردن. وقد استغلّت إسرائيل ببراعة الشرخ بين البلدين لمصلحتها[86].

وما إن اجتازت القوّات الإسرائيلية الحدود الدولية بين فلسطين ومصر، حتى بادرت بريطانيا والولايات المتحدة إلىٰ العمل بصورة نشطة لوضع نهاية للأعمال الحربية. لقد اقترحت الأُمم المتّحدة وقفاً لإطلاق النار قبلته مصر وإسرائيل في مطلع كانون الثاني (يناير) 1949. قرَّر الملك فاروق الانفكاك من الورطة الفلسطينيَّة. بتاريخ 13 كانون الثاني (يناير) بدأت مفاوضات ثنائية بين مصر وإسرائيل بمساعدة القائم بأعمال وسيط الأُمم المتّحدة، رالف بانش Ralph Bunche في جزيرة رودس، وتم توقيع اتفاقية هدنة بعد ذلك بستة أسابيع، أي في 24 شباط (فبراير). وهذه الاتفاقية وضعت نهاية رسمية لحالة

(85) عبد المنعم «أسرار 1948» ص 694 ـ 95، هيكل «العروش» ص 103 ـ 104.

(86) مكتب السجلات العامة البريطاني، القاهرة إلىٰ وزارة الخارجية البريطانية، 20 كانون الأَول (ديسمبر) 1948 وزارة الخارجية 371/ 68644، وزارة الخارجية البريطانية إلىٰ واشنطن، 22 كانون الأَول (ديسمبر) 1948، وزارة الخارجية 371/ 75344، من سير ر. كامبل إلىٰ وزارة الخارجية البريطانية، 27 كانون الأَول (ديسمبر) 1948، وزارة الخارجية 371/ 68644، القاهرة إلىٰ وزارة الخارجية البريطانية، 31 كانون الأَول (ديسمبر) 1948، وزارة الخارجية 371/ 68603.

الحرب بين إسرائيل ومصر. وقد حذت الدول العربية الأخرى حذو مصر بتوقيع اتفاقيات ثنائية مع إسرائيل: لبنان بتاريخ 23 آذار (مارس)، شرق الأردن بتاريخ 3 نيسان (أبريل)، وسورية بتاريخ 20 تموز (يوليو).

ومع أن المفاوضين المصريين في رودس طلبوا تنازلات كبيرة على الأرض في منطقة النقب، إلاّ أنهم كانوا يرغبون في الحد من خسائرهم وإيجاد طريقة مشرفة للخروج من الورطة الفلسطينيَّة. في أواخر الأربعينيات، كما في أواخر السبعينيات من القرن العشرين، شعرت مصر بالمرارة كما شعرت أنَّها لا تلقى التقدير من الدول العربية الأخرى بحجّة أنّها كانت الأولى في خرق وحدة الصفوف رسمياً مع هذه الدول. ولذلك آثرت مصر المفاوضات الثنائية مع إسرائيل لكي تحصل في رودس على صفقة أفضل مما تحصل عليه الأطراف العربية الأخرى. وقد وافقت إسرائيل على وجود مصري عسكري في قطاع غزّة لفكّ الحصار عن اللواء المصري في الفالوجا ولجعل العوجا منطقة منزوعة السلاح. لقد كان بوسع إسرائيل أن تحتل بسهولة قطاع غزّة وتقدّمه إلىٰ الملك عبد الله. غير أن مصر أرادت أن تحتفظ بقطاع غزّة لأنّها لم تكن راغبة في حصول شرق الأردن على مكاسب إضافية على الأرض والحصول على حدود مشتركة مع مصر. إن الملك فاروق قدّم تنازلات سياسية وعسكرية لإسرائيل للحيلولة دون حدوث ذلك.

كتابة التاريخ العربي تلوذ بالصمت إزاء المباحثات غير الرسمية التي جرت في باريس في أواخر سنة 1948 بين كمال رياض، مبعوث الملك فاروق، ومسؤولين إسرائيليين، وبصورة خاصة إلياس ساسون، وقد تناولت هذه المباحثات مسائل سياسية أوسع. ومن بين هذه المسائل علاقات إسرائيل مع مصر والدول العربية الأخرى. لقد فعلت إسرائيل كل ما في وسعها لبذر بذور الشقاق في الصف العربي. وفي هذا السياق اعتبر دافيد بن غوريون توقيع اتفاقية الهدنة مع مصر، كبرى الدول العربية، أنه الحدث الأكبر في عام حافل

بالأحداث الهامّة أعقب تأسيس دولة إسرائيل وانتصاراتها اللاحقة في ساحة المعركة.

العواقب السياسيَّة

من حيث السياسة الداخلية عقَّدت الهزيمة العسكرية قدرة الحكومة المصرية على معالجة الوضع الداخلي السياسي ـ الاقتصادي غير المستقر. لقد كثَّفت الحكومة قمعها للإخوان المسلمين وفي نهاية الأمر حلّت تنظيم الإخوان المسلمين في شهر كانون الأول (ديسمبر) بعد أن قامت إحدى فرق هذا التنظيم بأعمال عنف سياسي وأعمال إرهابية[87]. بعد أقل من شهر اغتيل النقراشي. وعضو الإخوان المسلمين الذي نفّذ الاغتيال قال أمام إحدى المحاكم المصرية أنه قتل النقراشي بسبب تآمره مع اليهود[88]. وهكذا صار المسرح مهيئاً لخصومات دموية في المستقبل بين الدولة والإخوان المسلمين.

إن التوترات بين النظام الملكي والضبّاط العسكريين الذين شعروا بالاستياء وقد سبق لهم أن قاتلوا في فلسطين، هذه التوترات ازدادت حدّتها. وبدافع الخوف من احتمال لجوء الجيش المصري المهزوم إلىٰ التمرّد، لم تسمح الحكومة المصرية للوحدات التي قاتلت في فلسطين بالعودة إلىٰ قواعدها في القاهرة، بل أرغمتها على البقاء مدة من الزمن في الإسماعيلية. وقد جرى استجواب بعض الضبّاط الأحرار، بل إنهم اتهموا بالتواطؤ مع الإخوان المسلمين للتحريض على عدم الاستقرار[89]. كان نظام الحكم الملكي قد

---

(87) شكيب «حرب فلسطين» ص16، العقاد «قضية فلسطين» ص112. جورج كيرك «الشرق الأوسط 1945 ـ 1950» (لندن ـ 1954) ص291. يقول عارف العارف محاججاً أن الملك فاروق كان هو البادىء في قمع الإخوان المسلمين لأنه كان مستاء من أدائهم الرائع في فلسطين خوفاً من أن يتمكّنوا بعد الحرب من تحدي سلطته، العارف «النكبة» المجلد الرابع، ص 844 ـ 45.

(88) العارف «النكبة» المجلد الرابع، ص 845 و913.

(89) شكيب «حرب فلسطين» ص435.

أضعفته حرب فلسطين بحيث أصبح الأمر مسألة وقت قبل أن يقفز العسكريون ويستولوا على السلطة[90]. إن الأعمال العسكرية كانت، المرة تلو المرة، تؤدي إلىٰ عكس النتائج المتوقعة. فقد كان تدخّل فاروق في فلسطين يهدف جزئياً إلىٰ توطيد سلطته عن طريق استثارة عواطف الوطنيين المصريين. لكن النتيجة كانت أن التدخّل أضعف فاروق إضعافاً كبيراً وأدّى في نهاية الأمر إلىٰ سقوطه.

لم تكن مصر الدولة العربية الوحيدة التي تعرّضت لتحول دراماتيكي بعد الحرب. فقد كانت للهزيمة في سنة 1948 آثار مدمّرة في سائر الأراضي العربية وأصبحت أنظمة الحكم القديمة، بلداً بعد الآخر، عرضة لتيارات أيديولوجية كنست في نهاية الأمر هذه الأنظمة القديمة. لقد حدث انقلاب في سورية سنة 1949 فأطاح بالرئيس شكري القوتلي وأقام نمطاً من التدخّل العسكري في السياسة العربية. واغتيل الملك عبد الله في سنة 1951، ودخلت مصر فترة من عدم الاستقرار السياسي بلغت ذروتها في ثورة الضبّاط الأحرار التي حدثت في شهر تموز (يوليو) 1952. بعبارة أخرى، هزيمة سنة 1948 أدّت إلىٰ عسكرة السياسة العربية.

علاوة على ذلك، فاقمت الحرب وما تبعها الخصومات العربية، وتلاشت الآمال الكبيرة التي كانت معلقة على جامعة الدول العربيَّة. إن مصر، كبرى البلدان العربية وأقواها، أذلت بهزيمتها على يد الدولة اليهودية الناشئة. ولعبت حرب فلسطين دوراً هاماً في تسميم التفاعلات العربية. مع أن الأنظمة القديمة انهارت في نهاية الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، فإن أنظمة الحكم الجديدة الراديكالية التي استولت على السلطة واصلت التناحر والشجار على نحو أشد من السابق. لقد استمرت المصالح الفردية للدولة تطغى على المصلحة القومية بغضّ النظر عن شكل النظام الذي في السلطة.

أكثر من ذلك، إن الهزيمة العربية وكتابة تاريخها أثّرت تأثيراً حاسماً على

---

(90) العارف «النكبة» المجلد الرابع، ص 851 ـ 52.

العلاقات بين المجتمعات المدنية وحكوماتها. كما إن الكتّاب العرب، بتوجيههم اللوم إلىٰ فساد وخيانة المسؤولية السياسية الحاكمة، قد عزّزوا، دون قصد، وعمّقوا المقولة التآمرية في الثقافة السياسية العربية. وكانت لدى العرب قناعة بأن الحرب ضد الدولة اليهودية الصغيرة كان يمكن كسبها لولا تواطؤ القادة العرب مع الدول الأجنبية. وخسارة الحرب لم يكن سببها الوحيد الضعف المتأصّل في الائتلاف العربي، بل كان سببها أيضاً أن العمل السياسي العربي كان موبوءاً بالفساد. ولم يعد المواطنون يثقون إطلاقاً بحكوماتهم، ولم يكن بالإمكان توطيد المؤسّسات السياسية في غياب الثقة والتعامل المهذب بين الدولة والمجتمع.

كان يأمل كثيرون من العرب أن تؤذن نهاية الاستعمار ببزوغ فجر جديد من السياسة الليبرالية ـ الديموقراطية في العالم العربي، ضمن علاقة جديدة بين الحكومات ومواطنيها. غير أن الهزيمة العربية وما تبعها من توزيع الملامة حطّم كل ذلك. وأصبح العمل السياسي العربي في أعقاب الهزيمة موبوءاً بالمؤامرات.. كان نشدان الإصلاح السياسي لا بدّ له من انتظار مجيء مخلّص جديد، يلغي كلياً السياسة القديمة. بعد سنة 1948، جاء الرجال الجُدد الذين امتطوا صهوات الجياد واستولوا على السلطة في مصر، والعراق، وسورية، فوعدوا بأن يفعلوا ذلك بالضبط. إن الفرسان الجُدد لم يفشلوا فقط في إنقاذ الشرف العربي، بل ضاعفوا بمغامراتهم العسكرية، المكلّفة خيبة الأمل العربية ووسعوا الهوة بين المحكومين والنخبة الحاكمة.

طرح فؤاد سراج الدين، وهو عضو في مجلس الشيوخ المصري معروف بصراحته، تساؤلات في جلسة مغلقة لمجلس الشيوخ بتاريخ 30 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948، عن نيّات القادة العرب وإدارتهم للحرب. وهو اتهم الأنظمة العربية، ومن ضمنها نظام الحكم في مصر، بالنفاق السياسي والنفعية لأنهم لم يطلعوا مواطنيهم على الوضع الحقيقي في فلسطين. ونوّه سراج الدين بأن

الحكومات العربية التي هدرت الموارد البشرية والمادِّيَّة في الحرب، قبلت بصورة ضمنية قرار الأُمم المتّحدة بتقسيم فلسطين. وقد تحدّى الحكومات العربية بأن تسلك إحدى طريقين، فإما أن تقاتل وتكسب الحرب أَو أن توقف هذه الأحجية المكلفة وتقول للشعب إن إسرائيل وُجدت لتبقى[91]. إن مقاضاة سراج الدين للحكومات العربية هي مقاضاة لمواقف الدول العربية التي تجمع بين الضدين وتقلب مواقفها في حرب فلسطين. فلم يكن في العالم العربي إجماع على موقف من إسرائيل، وبدلاً من التدخّل للدفاع عن الفلسطينيين وتدمير إسرائيل، كان تدخّل مصر حالة نموذجية من الخلاف الداخلي والطموح الإقليمي.

(91) شكيب «حرب فلسطين» ص 375 ـ 76.

obeikandl.com